للعقلاء فقط...!

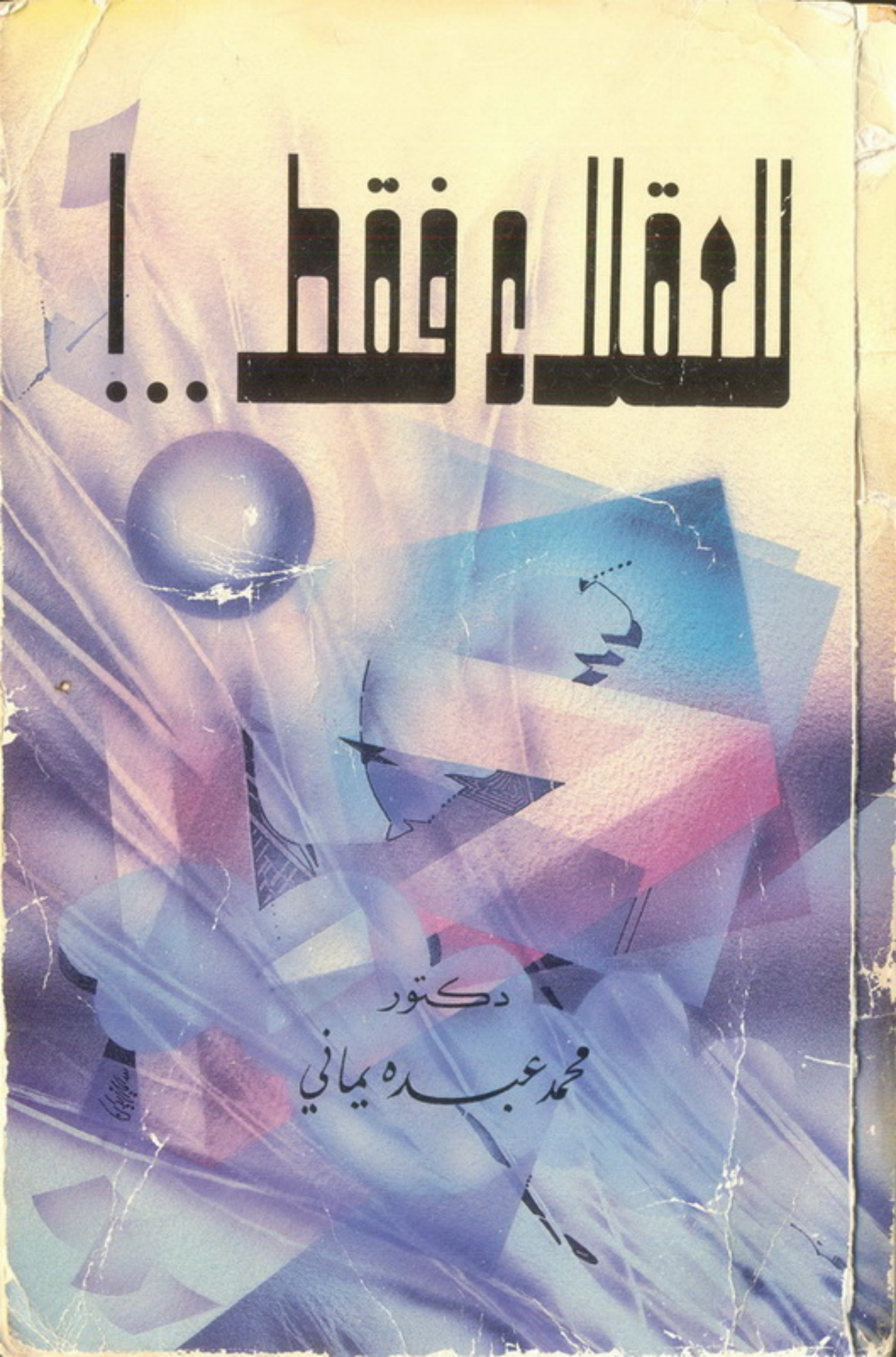

دكتور
محمد عبده يماني

مقدمة واهداء

لست أدري لماذا فكّرت في مخاطبة العقلاء ، هل لأنّهم قلّة في عالمنا اليوم ؟ أم لأنهم كثرة ؟ أم لأننا قد أصبحنا في مسيس الحاجة إلى جهود العقلاء بعد أن لفحت وجه العالم تلك الموجات الجاهلة الحمقاء فطوت ما كانَ فيه من قِيم جميلة وحجبت عن عينيه أضواء تلك المثل الطيبة التي كان يتفيّأ في ظلالها الحياة الإنسانية الكريمة .

أم لأنني تذكرت أولئك العقلاء الذين تعهّدوا قلمي غضاً قبل ثلاثين عاماً مضت ، وكنت إذْ ذاك وبعض الصحاب نخطو أولى خطواتنا في دنيا الشباب مبهورون بفن الكتابة معجبين بما يسطّر كُتّابنا الكبار ؛ أولئك الذين أخذوا بأيدينا على مدارج الكتابة يحدوهم الصدق والإخلاص وكانوا لنا خير ناصح وخير مرشد ، وكانوا يؤكّدون لنا أنّ أفضل ما نتعلمه ونحن على مشارف البداية ، أن نقرأ شيئاً نستفيد منه أو نكتب شيئاً يستفيد منه القارىء ، كما كانوا يؤكّدون لنا أنَّ مرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة ، وأن هذه الخطوة لا بدّ وأن تكون ثابتة راسخة على النهج السليم ليضمن صاحبها الاستمرارية على الطريق

حتى الهدف ويضمن السلامة من التعثّر والانزلاق .

ولطالما سمعنا منهم عبارات لها دلالتها وقوتها وشهرتها مثل (من سارَ على الدربِ وصل) ، ومثل (إذا أردت أن تخلد فاعمل شيئاً يستحق أن يكتب أو اكتب شيئاً يستحق أن يُقرأ) .

وأذكر أننا أحسسنا إذ ذاك بعظم المسؤولية وضخامة التبعة ، وأننا ضعفنا وارتجفنا ، وفكّرنا في التراجع ولكنهم كانوا معنا يشجّعوننا ، يعلّموننا ، يدفعوننا إلى المحاولة وإلى تكرار المحاولة ، والبعض منهم يردّد قول الشاعر :

ومن لم يحاول صعود الجبال يعشْ أبدَ الدهر بين الحفر

والبعض الثاني يردّد قول الشاعر الآخر :

ومن يتجنَّب في الحياةِ زحامهَا فليس له في ساحة المجد موضعُ

رحمهم الله ، لقد صدقوا معنا وأخلصوا لنا وكانوا العون والسند لأقلامنا بعد الله سبحانه وتعالى ، وكانت كلماتهم مصابيح هدى أضاءت لنا آفاق العلم والمعرفة .

فإلى العقلاء جميعاً ومنهم هؤلاء الأعزاء أقدم كتابي سائلاً الله جلّ جلاله عوناً وعافية وحسن ختام لمن ينعم بالحياة ، ورحمة وغفراناً لمن سبق إلى جواره الكريم .

وشكراً لمجلة اقرأ وأسرة تحريرها التي نُشرت بها هذه المقالات بين عامي ١٤٠٠هـ . ١٤٠٤هـ .

والله ولينا وهو من وراء القصد وهو الهادي الى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين.

الحرية ونمو الأمة

من العقلاء من يرى أن الحرية شيء أساسي وضروري لنموّ الأمم ورقيّها وهي أمر حتمي للإبداع . . . بل إن الإبداع في الأمم ، والشعوب ، وحتى في الأسرة الواحدة يتناسب تناسباً طردياً مع حجم ونوعية الحرية المتاحة . والحرية كيان ينمو في النفس البشرية ويوجد معها ، وهي كائن حي ، تحيا به الأمة أو تموت ، ويحيا به الفرد أو يموت موتاً معنوياً .

وويلٌ لأمة تخنق فيها الحرّيات ، فهذه الأمة تموت موتاً بطيئاً ؛ لأن نتائج كبت الحريات أو مصادرتها له آثار مدمّرة وعقيمة في الأمم بل وحتى في الأسر والمجتمعات ، ومضاره مؤكدة وحتمية ، وحتى الفوائد القهرية التي تُجنى من خلف كبت الحريات تعتبر فوائد سطحية ووقتية وعابرة ، ولا يمكن مقارنتها بما يحدث على المدىٰ البعيد من نتائج سلبية ، إذ إن أقل ويلاتها هو خلق جيل من الأمعات غير قادر على الحركة أو الإبداع ، لا تطوّر فيه ولا وعي عنده بأبعاد حقوقه ، ولا بدوره وواجباته كمواطن أو حتى كإنسان .

والحرية أصالة ومسؤولية ، وقد أوضح صاحب « تاج العروس » في وصفه للحرية بأنها الخلوص من كل شيء ؛ فيُقال فرس حرّ أي أصيل ليس في نسبه مطعن ، كما يقال أرض حرّة لا سبخة فيها ، وطين حرّ لا رمل فيه ، وكذلك يوصف الشخص بأنه حرّ أي كريم شريف طيب الأصل ، وإذا قيل من حرية القوم ، يعني من أشرافهم .

فهي إذاً أصالة وليست مجرّد شعارات أو مجرّد انطلاق من القيود ، بدون ضوابط أو روابط . والحرية تبدأ بالسيادة على النفس ، وإطلاق إرادة الإنسان وعقله وعواطفه من قيود الشهوة ، والشخص الحرّ هو الذي تتجلّى فيه المعاني الإنسانية السامية فيضبط نفسه ويمنعها من الهبوط إلى سواقط الأمور فلا يكون عبداً لنفسه الأمّارة بالسوء ، والإنسان الحرّ إنسان مسؤول ، لأنها كما ذكرت مسؤولية ، والحرية والمسؤولية يرتبطان برباط واحد ، وبذلك يكون الفرد حرّاً في تصرفاته كعضو في المجتمع ، ومن واجب أفراد المجتمع أن يحترموا حريته في التصرف وفي اتخاذ القرارات الخاصة به ، وهو مسؤول عن ذلك مسؤولية كاملة ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** ﴾[1] .

والإنسان يولد حرّاً بالفطرة ، وهذا عمر بن الخطاب

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٣ .

رضي الله عنه يصرخ ليعلن : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وحين قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « اسمعوا وأطيعوا » ، تصدّى له سلمان الفارسي يقول : لا سمع لك علينا اليوم ولا طاعة حتى تبيّن لنا هذا البرد الذي ائتزرت به من أين لك هو ؟ هذا هو المقياس الخلقي للسياسة ، هو تعامل سياسي بين الحاكم والمحكوم قائم على القاعدة العقيدية ، ومتّسم بالسمة الأخلاقية . وحين لم يغضب عمر لهذه القولة واستجاب وقال : لمَ ؟ وحين أفهمه سلمان أنه يتساءل عن البرد ، فردَّ عمر : يا عبد الله بن عمر (ينادي ابنه عبد الله) ناشدتك الله هذا البرد الذي ائتزرت به أهو بردك ؟ قال : نعم ، ثم التفت إلى المسلمين يقول : إن أبي ناله برد واحد كما نالَ بقية المسلمين ولكنه رجل طوال ـ أي طويل لا يكفيه برد واحد ـ فتركت له بردي . هذا هو مقياس أخلاقي في الوقت الذي هو مقياس عقيدي وفي الوقت الذي هو القاعدة التي تقوم عليها السياسة في الإسلام .

ولعلَّ المتدبِّر لأبعاد الحرية في المفهوم الإسلامي يدرك أنها حرية تحرر أول ما تحرّر الفكر فهو حر ؛ الإنسان حر في أن يفكر ، وحرّ في أن يعمل ، وحر في أن يقول ما يشاء ،وأن يتصرف كيفما يشاء ؛ ولكن في إطار المسؤولية الكبرى ؛ مسؤوليته كمسلم متمسّك بعقيدته الإسلامية ، فحريته مطلقة ولكنها تنتهي عند حرية الآخرين ، وحريته مطلقة ولكنها تنتهي

عند حرية الأمة أو مصلحة الأمة أو المصلحة العليا كما ذكرنا ، ولذلك فإن هناك نظاماً يحدّد له أبعاد هذه الحرية في وقت يطلق عقله للتفكير ولسانه للقول ويطلق يده للتصرف ، بحكم هذه التصرفات . . . فهو إذن لا يراها حرية بمعنى اندفاع خلف الأهواء والرغبات الرخيصة والشهوات ومجرد كسر الأنظمة ، فهو في هذا ليس حراً حتى مع نفسه ، بمعنى أنه ليس حراً في أن يدمّر نفسه وإلاّ اعتبر سفيهاً وجب الحجر عليه . إذن هي حرية مطلقة ولكنها مسؤولية مشتركة بين الفرد والأمة والمجتمع « الإسلام أعطىٰ الإنسان الحرية وقيّدها بالفضيلة حتى لا ينحرف ، وبالعدل حتى لا يجور ، وبالحق حتى لا ينزلق مع الهوى ، وبالخير والإيثار حتى لا تستبد به الأنانية ، وبالبعد به عن الضرر حتى لا تستشري فيه غرائز الشر وفي ذلك يقول صلّى الله عليه وسلّم : « الكيّس من دانَ نفسه وعملَ لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني »[1] .

وويلٌ لأمة تصبح الفوضىٰ فيها هي مسمّى آخر للحرية أو حتى مرادفاً لها ، فهذه أمة تمزق نفسها وتشوه كياناتها وتضيع أجيالها ، ولا يمكن لها في ظل مثل هذه الفوضىٰ أن تنتج أو تبدع ، فشتّان بين الحرية وبين الفوضىٰ ؛ لأن الأولى مسؤولية

(١) المقاصد الحسنة للسخاوي ـ (الحديث رقم ٨٥٠) .

والثانية تسيّب وعبث والأولى تبني والثانية تدمّر .

وقضية حرية الفكر من القضايا الأساسية ، كما ذكرنا ، التي تأخذها الأمم الواعية في اعتبارها وهي تخطط لنهضتها . ومن دلائل صحة أي مجتمع أنه يصدر رجال الفكر فيه ، يحميهم ، يدعمهم ، يؤيّدهم ، تكون لهم القيادة والريادة ، وويلٌ لأمة يقودها سفهاؤها ويكون مصير رجال الفكر فيها أن يزحزحوا عن مكان القيادة ، أو أن يزج بهم في السجون لأن هذا دليل واضح على أن هذه الأمة أمة مريضة ، ولا يمكن لها أن تصحو أو تشفىٰ إلاّ بإعادة القيادة والريادة إلى رجال الفكر فيها حتى يمارسوا فيها حريتهم ومسؤوليتهم في الأخذ بيد أمتهم للرقيّ والتقدم ويشجعوا ويعانوا ويساعدوا على ذلك ، فيكون الانتاج ويكون الإبداع . وأحسب أن من ينظر إلى واقع أمتنا العربية اليوم ويتحسّس أبعاد محنتها سيجد أن السبب الرئيسي في التدهور هو المحنة التي وقع فيها رجال الفكر فلم يعودوا إلى ممارسة حريتهم في التفكير والانتاج وابتعدوا عن قيادة الأمة في وقت قرّب فيه الحكام سفهاء الأمة ، وأعطوا لهم الصدارة . ولعلّ من عمق البلاء أيضاً أن تصدّر الكثير من السفهاء في أجهزة الإعلام فراحوا يضطهدون المفكرين ويحولون بينهم وبين الإبداع ، وقد أعجبني حديث حضرتُه للعالم الصديق محمد قطب عندما تكلّم عن مجتمع اليوم ، وكان يتكلّم عن المجتمع المسلم ، فقال إنه مجتمع انتقلت

منه قيادة الفكر إلى الدخلاء لدرجة أنهم أصبحوا هم الذين يخطّطون ويدعون ويستحثّون الحكومات ويستجدونها ويستقفونها وينظّمون حملات لاستئصال الفكر الإسلامي[1] .

وإذا انتقلنا إلى ناحية أخرى في نواحي الحرية ، وهي الحرية الاقتصادية ، نلاحظ أن الإسلام أعطى الإنسان الحرية في أن يتصرف وسما بهذه الحرية سمواً اتّسم بالوسطية التي لا إفراط ولا تفريط فيها ؛ فالإنسان حرّ في ماله يتصرف فيه كما يشاء لكن عليه أن يعلم تماماً أن المال مال الله سبحانه وتعالى ، والحرية الاقتصادية في الإسلام « تظهر فيها المفارقة بين النظام الإسلامي وبين النظام الرأسمالي والاشتراكي ؛ فبينما يمارس الأفراد في النظام الرأسمالي حريات بغير قيود وبينما يصادر النظام الاشتراكي كل حرية ، نجد أن الإسلام في تعادله ووسطيته يسمح لأبنائه ، بحرية ملتزمة ، بمجموعة من القيم والمثل تأخذ بزمام الحرية بعيداً عن شطحات الانحراف لتضبطها وتجعل منها أداة خير ونفع وصلاح . وهكذا يجعل الإسلام من ذوات أبنائه حضانات يُربّىٰ فيها حراس الحدود أو ما يطلق عليهم البعض تحديد الذات الذي هو الرصيد الروحي والوعي النفسي والالتزام برقابة مَنْ إذا كان لا يراه المسلم فإنه يرى المسلم . ولعلَّ آية النجاح هذا العامل الذاتي ، إذ أنه ظلَّ

(١) قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٨ .

يقظاً ساهراً على مدار القرون حتى في فترات السلطة الإسلامية ، فإنه ظلَّ يعمل من خلال الأفراد بدافع داخلي لا سلطان عليه ، وفي إطار الحرية الاقتصادية أيضاً نظم الشرع ذلك فأعطىٰ للدولة حق التدخل لحماية الصالح العام ، وحراسته حتى لا تتصادم مصلحة بأخرى وحتى تكون هناك فرصة لتقديم الصالح العام على الصالح الفردي دون إضرار بالصالح الفردي . فالإسلام هو صاحب القاعدة لا ضرر ولا ضرار ؛ وذلك لأنه في الأصل يعتبر أن ولي الأمر في الإسلام يختار كأصلح ما يكون المسلم وأقدر ما يكون المسلم وأكفأ ما يكون المسلم ، وهو منفّذ للشريعة متبع لها ، لا مبتدع فيها ، وهو مُحاط بعيون الأمة الواعية محروس بمشورة ملزمة من أهل الحلّ ، والعقد ، ومن ثمَّ كان الأصل في تدخله للصالح العام الذي يقوم على رعايته[1] .

ومن هذا المنطلق نصل إلى تعريف مهم للحرية ، وهي أنها ليست حرية الفوضىٰ وإنَّما هي حرية المسؤولية التي تكون فيها السيطرة على ضرورة الحياة ، فلا يعبث فرد بحرية أفراد آخرين ولا تكون حريته على حساب مجتمعه أو أمته أو مجتمعه الإسلامي . إذن ففيها سيطرة على الضروريات « فماذا نفعل

(١) المقومات الإسلامية الاقتصادية لمواجهة التحديات الايديولوجية ، للدكتور أحمد نجار .

بالحرية ونحن جياع ؟ إنَّ أهمّ مِن الحرية السيطرة على ضرورة الجوع وامتلاك وسيلة العيش النظيف . ثم ماذا نفعل بالحرية ونحن مرضى ؟ إن المرض أصبح أصعب لحرية تحركنا ، فلكي نتحرك بحرية لا بد أن نسيطر على المرض . ثم ماذا نفعل بالحرية بلا ثياب أو مساكن ؟ إن قسوة الطبيعة ستعيق حريتنا ، فلكي نكون أحراراً لا بد أن نسيطر على الطبيعة ونمتلك الثياب والبيوت التي تقينا الحرّ والبرد . . . لهذا كان العلم أنفع خادم للحرية بكل أشكالها وبكل ما ينتج عنها ؛ لأن العلم أنجح الوسائل للسيطرة على الضرورات وعلى قوانين الكون ونواميس الطبيعة . فالقضاء على الأمراض والمجاعات والحروب والجهل أوضح سبيل أمام حرية تحرك الإنسان ، وبعد أن نسيطر على الضروريات نسأل : هل تحررنا من ضرورياتنا ؟ فإذا امتلكنا الواقع وسيطرنا على الضروريات فقد امتلكنا ما هو أهم من الحرية وهو الانتفاع بها ؛ لأن الحرية الشخصية فقط كمسمًّىٰ هي مطلب تافه لأنه يتيح لنا ممارسة الهوايات الرخيصة ، ونلبس ما يروق لنا ويتيح لنا أن نتجوّل ، وهذه حرية تافهة . أما الحرية النافعة فهي التي نحقق بواسطتها الطموحات الاجتماعية ، وأكبر الأغراض البشرية ، ولا ننتفع بحريتنا الكبرى إلاَّ باقتدارنا العلمي على تيسير قوانين الوجود وإخضاع الضرورات لسلطان معرفتنا ، ولهذا اعتبر أكثر الفلاسفة أن المعرفة أهم ما يمتلك الإنسان لأن المعرفة مفاتيح

أسرار الوجود ، وبمعرفة أسرار الوجود يمكن أن نسيطر ، وبالسيطرة على الضرورات نملك الحرية التامة[١] .

والحرية الدينية أمر أولاه الإسلام أهمية كبرى ، حيث أن الإسلام اتَّسم بالسماحة ، فقد كانت الدعوة الإسلامية كلها سماحة ووعي وإدراك بأبعاد وأهمية الحرية واحترام كرامة الإنسان ، فكان الإسلام يدعو المسلمين إلى التسامح واحترام حريات الآخرين حتى مع أعدائهم ، ولعلَّ هذا من الأمور التي ساعدت على انتشار الإسلام ، فقد احترم حرية العقيدة وأكَّد الإسلام في أكثر من موضع أن الإنسان حرّ في اعتقاده وأننا إنَّما ندعوه للإسلام ولكن لا نكرهه على ذلك ، والآية في ذلك واضحة﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ** ﴾[٢] وكذلك الآية الأخرى في « سورة يونس » ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[٣] .

إذن هي دعوة صادقة إلى احترام حريات الآخرين وفي قمتها الحرية الدينية مع وجود الدعوة إلى الله بدون إكراه ، وبدون اضطهاد ، ولعلَّ القصة التي تُروى عن رجل أرادَ أن يكره أبناءه على الإسلام فنهاه الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) مجلة الكلمة ، عدد ١٢ ، مارس ١٩٧٣ ، عن قضايا يمينية .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٩٩ .

عن ذلك وأكّد على عدم إكراه الناس ، ولعلَّ قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما لقي العجوز في الطريق وكانت نصرانية وبعد أن قدم لها الخدمة التي طلبتها دعاها للإسلام وخشي رضي الله عنه أن يكون قد استغلَّ هذا الموقف فأكرهها ، فتلا في نفسه ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ** ﴾[1] وقال : اللهمّ اشهد أنني لم أكرهها .

ولا شك أن هناك من يروّج لفكرة أن الإسلام انتشرَ بالسيف ويدّعي أن الإسلام لم يحترم حرية العقيدة ، وهذه فرية تُفترى على الإسلام ومن أولئك الحاقدين الذين لم ينصفوا الإسلام ، ويعمدوا إلى مغالطة الواقع وتزوير الحقائق التاريخية لأن المسلمين لم يحاربوا ليكرهوا الناس وإنّما كانت كل حروب الإسلام ردعاً للذين بغوا على المسلمين واضطهدوا المسلمين ، وكان فيها حرص على تأمين العقيدة ودفع الفتن ومنعها ، وكانت ردّاً للعدوان وتحقيقاً للحرية الدينية لهؤلاء المسلمين الذين يريدون أن يحتفظوا بعقيدتهم فيأبىٰ طغاة قريش ويذيقونهم ألواناً من التعذيب والاضطهاد ويخرجونهم ﴿ **من ديارهم بغير حق إلاَّ أن يقولوا ربنا الله** ﴾[2] فصبروا حتى قويت شوكتهم واقتصّوا لأنفسهم دفاعاً عن حريتهم وعن

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .
(٢) سورة الحج ، الآية ٤٠ .

معتقدهم الإسلامي . فهو إذن لم ينتشر بالسيف ، ولم يستخدم السيف لاجبار الناس أو إكراههم أو حجب حريتهم ، بل على العكس من ذلك استخدم السيف لدفع الفتن وتثبيت العقيدة وردع الطغاة ، ولهذا فلا تعارض مطلقاً بين دعوة الإسلام إلى احترام الحرية الدينية لغير المسلمين وبين استخدام السيف للدفاع عن حق مهدر أو مغتصب أو كرامة مهدرة . وقد أعجبني الأستاذ عبد المقصود عبد الغني في قوله وهو يناقش مبدأ الحروب الإسلامية وفلسفتها حيث قال : إنها لا تتنافى مع حرية العقيدة التي يقررها الإسلام ، وعلينا أن نتنبّه إلى خطأ الحاقدين على الإسلام فزعموا أن الإسلام قد انتشر بحد السيف والغلبة والقوة وأن القتال كان فيه لحمل الناس بالقوة . فقد نهى الإسلام عن قتال كل من يُلقي السلام وإن كان يدين بغير دين الإسلام[1] ، حيث قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة** ﴾[2] .

وبالنسبة للحرية الثقافية فهي أيضاً ذات أهمية كبيرة جداً خصوصاً في الدول المتحضّرة أو التي تريد أن تأخذ بأسباب الحضارة ، لأن العملية الثقافية هي غذاء أساسي وجوهري

(١) منبر الإسلام ـ الحرية الدينية في منطق الإسلام ، الاستاذ عبد المقصود عبد الغني .
(٢) سورة النساء ، الآية ٩٤ .

لفكر الأمة . ومن المهم أن يتمتع الكاتب والمفكّر بحرية تكفل له مناقشة الأمور بصور إيجابية ، ولكن من المهم أيضاً أن لا تكون هذه الحرية على حساب مصالح الأمة فتتحول إلى معاول هدم خصوصاً في الدول النامية التي تحتاج إلى حماية من الأفكار الهدّامة تماماً كحاجتها إلى تنمية الحريات وهذه معادلة حرجة . في كثير من الأحيان يتسلّط فرد معين في أي مؤسسة ثقافية تشرف أو تراقب الفكر في أي بلد بصورة تجعل هناك عيوباً أساسية في منطلق الثقافة في البلاد نفسها ؛ فهو لا يريد للناس أن يفكروا بحرية ويناقشوا بحرية وإنّما يريد أن يكون ذلك بصورة منسجمة مع تفكيره هو ، أو مع تصوّره وربما الخاطىء للنظام الرقابي ، فيتصور أن الناس جميعاً شعراء أو كُتّاباً أو فنانين يمكن أن يكونوا صورة لنظرته أو لرؤيته وهو أمر محال . وهنا تظهر أهمية وعي أجهزة الثقافة بحيث تدرك أنها أجهزة تختلف تماماً عن أجهزة البوليس أو أجهزة الجيش أو أجهزة السيطرة القهرية المباشرة لأنها مسؤولة عن تنمية هذه المواهب ومسؤولة عن فتح قنوات واسعة للفكر يتنفس من خلالها ، مسؤولة عن دعم عملية الإبداع ، وعليها أن تتحسّب لكل خطوة تتخذها بحيث تنمّي الثقافة ولا تقتلها ، وتحرص على عدم إيجاد أو بثّ بذور للتبعية والاستسلام في الفكر عند أبناء الأمة ، لأن ذلك يؤثّر تأثيراً مباشراً على مستقبل أبناء الأمة وليس في حاضرهم فقط ، وقد يجعلهم يصبحون جيلاً

مستسلماً غير قادر على الحركة أو الإبداع « والمسألة كلها تدور حول مدى إمكانية الفرد في كل شعب ، تربية وثقافة وقدرة على الاستمرار والصمود كأمة احترمت رجولة أبنائها وعزّتهم ، وفتحت أمامهم أبواب تنمية هذه الرجولة والعزة وتربيتها جيلاً بعد جيل وبإصرار واعٍ بأن كل جيل يضيف ثقافة وفكرة إلى زاد الأمة كلها ، ودون أن يعطل جيلاً واحداً عن أداء دوره في تنيمة حصيلة هذه الأمة الثقافية . أمة تستطيع أن تواجه الأزمات في صبر وإصرار وفي قدرة حقيقية على الصمود الكامل أمام كل عوامل الغزو الخارجية التي قد تفوقها عسكرياً ولكنها لا تستطيع أن تتفوق على جوهرها الصلب الأصيل . وأمة أهانت هذه الرجولة والعزة في أبنائها في مرحلة من مراحل تاريخها لا تتوقع من هؤلاء الأبناء إلاّ أن يبدوا للدخيل المستعمر نفس الخنوع الذي ارتضته لهم في هذه المرحلة التي قد يطغىٰ فيها طموح فرد على وجود أمة ، ويضعوا أول مسمار في نعش رجولتها وعزّتها ، ثم يبدأ عزلها ثقافياً عن ماضيها وتوقفها حضارياً في حاضرها ، ثم ضياعها في الغد وضياع تسرّبها المتميز وشخصيتها القوية التي تجعل منها أمة ذات ملامح واضحة بين أمم العالم .

وقد تحولت شعوب كثيرة من جرّاء هذه الفترات التي تُفرض عليها فرضاً من صدارة الحضارة في فترة معينة من تاريخ البشرية إلى الاكتفاء بمقاعد المتفرجين في فترات أخرى وربما

زادَ انحدارها لتصبح فريسة لعبودية كاملة تسلّم بالتبعية للأمم الغالبة الصاعدة وترضى منها بالفتات ومساواة الموائد »[1] .

وعلى الرغم من أهمية بناء الدولة عسكريّاً إلا أن القوة الحقيقية للأمة هي المحصلة لقدرات ليست بالضرورة عسكرية فحسب ولا مادية فحسب بل إن للثقافة دوراً أساسياً لأنها تساهم في بناء الإنسان المتحضر الواعي المدرك لأبعاد مسؤوليته ودوره في بناء أمته ، ولهذا نجد أن هناك الكثير من دول العالم التي لم تكن تملك آلة عسكرية كبيرة ولا ثروات طبيعية ومع ذلك شقت طريقها وأصبحت من الدول التي يُشار إليها بالبنان كنتيجة لجهود أبنائها . فالثروة البشرية إذن عندما تكون ثروة نامية ومتطورة تكون مرجحة لنهضة الأمة في صراعها مع التنمية وفي قدرتها على الأخذ بأسباب الحضارة (إن التطور الحضاري الوافد من نفسه يدفع الدول الملتزمة باحترام ثقافة الفرد عند نقطة معينة لإدراجها تحت اسم الدول النامية إلى اسم الدول المتحضرة ، بصرف النظر عن قدرتها المالية أو قوتها العسكرية أو حتى حجم بنائها البشري ، وفي جميع أنحاء العالم وخاصة في أوروبا التي حمت قيم الفرد باستمرار قوى صغيرة حجماً وضعيفة اقتصاداً وقوة عسكرية ومع هذا فهي

---

(١) الثقافة وأجهزة الثقافة ، الملحق الاسبوعي ، ١٤ أكتوبر ، فاروق خورشيد .

تدرج تحت اسم الأمم المتحضرة لا تحت اسم الدول النامية . فالمسألة ليست مسألة مال أو مسألة قوة عسكرية إنما المسألة أساساً مسألة بشر متقدم ومتطور وواعٍ لحقوقه ودوره وحريته ، وهو لم يحقق هذا الوعي في هذه الدول إلا بما انشأ ، كأفراد ، من منظمات وجامعات وهيئات تحمي الثقافة وتطورها ، ولا يصل إلى مكانه فيها إلا أصحاب الفضل الثقافي الحقيقي بعيداً عن تأثير الحكومات أو نفوذ أصحاب الحلّ والعقد السياسي فيها ؛ فالحكومات تتغير ولكن ثقافات البلاد لا تتغير وإنما هي تسير في تطورها الهادىء والدائم مع قدرة أبناء الثقافة والفكر في هذه البلاد على التطور المستمر إلى المستوى الثقافي الأعلى ، وحرص أبناء هذه الشعوب على حرية الفرد ليس حرصاً عبثيّاً وإنما هو حرص على استمرار وجود القدرة على النماء الفكري والوجداني الذي تنتجه حرية الحركة الثقافية بكل معطياتها[1] .

والحرية موجودة في النفس كما ذكرنا بالفطرة ، وهي لا تؤخذ ولا تُعطى ، وإنما قد تُعطل ، أو تشجع ؛ وذلك أنه حتى في حالات الاستعمار البغيض حين يطبق على أنفاس الأمة ويشوّه كياناتها ، ثم يرحل إلى غير رجعة فإنه لا يعطيها حريتها ، لأن الحرية كانت موجودة في كيانها ، ولولا

---

(١) نفس المصدر السابق .

ذلك لما رحل الاستعمار ولما تطلّعت إلى الخلاص منه . ومن ناحية أخرى فهناك أمم استُعمرت وظل فيها الاستعمار لمدة طويلة ثم رحل عنها فكانت هذه الأمم والشعوب أكثر عبودية له من ذي قبل ، وكم من العبيد كانوا أكثر حرية من أسيادهم .

ومرة أخرى ، يرى العقلاء أن من واجب أي أمة تريد أن تنهض وترتقي ، وتزاحم الأمم النهضة ، أن تعمل على رعاية رجال الفكر فيها ، وتجعلهم يعملون في حرية وسلام ، تؤيدهم وتحميهم وتدعمهم ، وتجعل لهم القيادة والريادة في مجالات العلوم والفكر بصفة خاصة ، وتشجع أجيالها الصاعدة على التفكير بحرية ، ولكن بمسؤولية وصدق الله عزّ وجلّ حيث يقول : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾[1] .

فهي الحرية ، وهي المسؤولية ؛ فمسؤوليتك تزداد عندما تملك زمام نفسك ، لأنك مسؤول عنها وعن أمتك ، وهي مسؤولية أمام الله ، ثم أمام ضميرك قبل الناس .

ليت شعري! هل نعي أبعاد هذا الأمر؟

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٣٦ .

الشك

ويل لأمة تشك في أبنائها ، أو يشكون فيها ، تخاف منهم ولا تخاف عليهم ، تدفعهم ولا تدافع عنهم ، تتجسس عليهم ولا تتحسس ما بهم ، وقد تعين عليهم ولا تعينهم ، وتنقلب بذلك كل المفاهيم لأن الحالة قد تحوّلت من الثقة إلى الشك .

وقديماً قيل : من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً ومن يزرع الريح يحصد العاصفة .

ترى ، ماذا يحصد الذين يزرعون الشك ؟ !

والشك مرض بالنسبة للفرد وآفة بالنسبة للأسرة الواحدة ولكنه كارثة ، وزلزال بالنسبة للأمة .

فهو يمزق كل الصلات ، ويعبث بأوثق العلاقات الإنسانية ويدمّر الروابط مهما كانت قوية ، ويبغض الأمة الواحدة فيغدو بعضها يشك في بعضها ، وبدلاً من أن تكون كالبنيان الواحد يشدّ بعضه بعضاً ، تصبح كالهشيم تذروه رياح

الشك والحقد ، وتعصف به الظنون والهواجس والأوهام . وهكذا تفقد الأمة قدرتها على الفعل والتفاعل ، أما قدرتها على الفعل فلأن قواها قد خارت وضعفت وتشتّتت ، وأما قدرتها على التفاعل فلأنها فقدت الذين كانت تتفاعل معهم يوم شكت فيهم وشكوا فيها ، وخافت منهم وخافوا منها .

ولهذا يتوقف نمو الأمة ، ليس ذلك فحسب ، بل تبدأ مرحلة العد التنازلي ؛ يوم تأكل الأمة بعضها كالنار تأكل بعضها ، والبعض يأكلها إذا لم تأكله ، وذلك لأن البيئة كلها تصبح بيئة مريضة ومليئة بالحواجز المصطنعة والشحنات السالبة التي تفرغ الأمة من معانيها السامية ، لأن هناك علاقة طبيعية بين الثقة والوطنية .

وعندما تتفرغ الأمة من محتواها الحقيقي تتحول إلى وحش كاسر بعد أن كانت أماً حنوناً ، وعندها يتفاوت رد الفعل لدى أبناء الأمة ؛ فمنهم من يختار مهادنتها والصبر عليها تجنباً للعقوق ، والبعض يتجه إلى مواجهتها ؛ فهو يؤمن بأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وهو أيضاً يكره أن يبيع دينه بدنياه فكيف إن هو باعه بدنيا غيره .

وليت شعري كيف تتوقع الأمة حباً من أبنائها ؟

وهي تقتلهم بالآلاف ، وتسجنهم بالآلاف ، وتشردهم

في آفاق الدنيا ، وتملأ بيوتهم خوفاً وفزعاً ، وتتسلط عليهم وتسحقهم .

ثم تقذف بهم من فوق سطوح المنازل وتعلقهم على المشانق دون محاكمة ، وتدّعي أنها تحكم فيهم بحكم الله ، وأنها ثارت من أجل كلمة الله ، فهي ثورة باسم الدين والدين منها براء ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[1] .

ولذلك فالله يصفهم بالقلوب المريضة ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[2] .

والغريب أنهم يسيرون ، ويواصلون مسيرة الشر في صمم وعماء ، ولا يلتفتون إلى أي نداء لا من الداخل ولا من الخارج ، لا من صديق ولا من رفيق ؛ فهي الغطرسة والغرور باسم الدين ، وثورة الإسلام .

ويظلون يمشون في الأرض مرحاً ، ويعتلون على رفات وجماجم العباد ، وتزداد « الآيات » وتتوسع السلطات ، وتمتلىء الشوارع بالهتافات ، والغريب أنهم يظنونها هتافات لهم . . . !!

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠ .

وتمضي المسيرة ، ويترحم الناس على أيام كانوا يحكمون فيها « بشاه » واحد ، فتعددت الـ « . . . » .

ويأسفون على واقع أصبحوا يذبحون فيه كالشياه ، وحتى « الشياه » تجد من تعاليم الله ما يأمر بالترفق بها .

« إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وإذا قتلتم فاحسنوا القتلة » .

أما هؤلاء المساكين ، فقد أصبحوا تسلية يتلهى بها أولئك الذين حكموا بالهوى وبالحقد ، وبثوا الشك في كل مكان وفي كل نفس حتى ضاقت الأرض بالناس على سعتها ، وهلك الناس بظلم الناس ، وامتهن الإنسان أخاه الانسان ، وهذه كارثة كبرى .

ولكن المصيبة أنهم يدعون حكم الله ، وثورة الإسلام .

فاللهم الطف بعبادك ، فأنت اللطيف ، ولا تؤاخذهم أو تؤاخذنا بذنوبنا فعفوك أوسع ورحمتك أشمل .

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢١ .

مؤذن ... في مالطة !!

رأيت رجلاً يؤذن في مالطة ، ووقفت أتحسّر على ماضٍ تليد للعروبة والإسلام في هذه الديار وقلت في نفسي : ليت شعري كيف ضاعت هذه الديار ؟ ومن الذي أضاعها ؟ ! وويل لأمة يحكمها ويقودها جهّالها أو سفهاؤها ، ليس لهم ماضٍ يرتكزون عليه أو يتعظون به ، ولا يؤملهم في مستقبل يرجونه ، وإنما يعيشون ليومهم ، ولا يرون أبعد من أنوفهم ، مغامرون ، انتهازيون ، يزجّون بأوطانهم في متاهات من الصراع ، ويضحون بأبناء أمتهم كالرّعاع ليرضوا شهواتهم ، والمهم أن يحقّقوا آمالهم السطحية ، ويسمعون الضجيج من حولهم فيظنّونه من غفلتهم هتافاً ، ولذلك كان من خير الدعاء .

« اللهم ولِّ علينا خيارنا ولا تولِّ علينا شرارنا » .

وكما قال شاعرنا :

لا يصلح الناس فوضىً لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

عفا الله عن أولئك الملوك الأقزام الذين أضاعوا تاريخاً مجيداً لنا في تلك الديار ، تماماً كما ضعنا في صقلية والأندلس ، ووقفتُ على قمة جبل فيه مكان سمّاه المسلمون « بالمدينة » وبجواره مكان آخر سمّوه « بالرباط» وتلفّت من حولي فإذا الناس يتحدثون بلغة فيها الكثير من مفردات اللغة العربية ويسمونها باللغة المالطية ، ولكن أي عربي أو حتى من كان ملماً بالعربية يدرك على الفور صلة هذه اللغة باللغة العربية ، حيث تحتوي على ما لا يقل عن ٨٠٪ دون أي مبالغة من المفردات العربية .

ووقفت استمع إلى المؤذّن وهو ينادي للصلاة ، وليس من مجيب وتذكرت المثل القديم : « زي اللي يؤذن في مالطة» .

أما المؤذن فقد كان الشيخ محمد السعدي ، إمام ومؤذن المسجد الوحيد في مالطة،وهو ممنوع من استخدام مكبّرات الصوت ، فكل الجوار من المسيحيين ولا يوجد غير نفر قليل من القائمين على أمر المسجد .

وتذكرت بيت شوقي الشهير الذي قال ، عن المسجد الأموي في دمشق :

فما الأذان أذان في منارته
إذا تعالى وما الأذان آذان

والحق أنه منظر مؤلم ومؤسف ومؤثر في النفس ، خصوصاً إذا استرجع الإنسان ما كان لنا من تاريخ مجيد أضاعه أولئك المناحيس الذين باعوا دينهم بدنياهم ، واتبعوا شهواتهم وفرّطوا في حق أوطانهم وخانوا الله وخانوا أماناتهم .

وصانعوا أعداء الأمة على حساب دينهم وأوطانهم ، وأثاروا نزعات قبلية وعنصرية ممقوتة أدت بطبيعة الحال إلى اختلافهم واقتتالهم بسبب اختلاف مصالحهم وتضارب رغباتهم ، فتحولت بذلك قوتهم من العمل بالإسلام ومن أجل الوطن إلى العمل من أجل مصالح فردية أو عنصرية قبلية وأثاروا حروباً شعواء أدت إلى تمزيقهم وشتات كلمتهم ، وأذهبت ريحهم أو ما بقي منها . وتذكرت الأندلس والمأساة الأندلسية المؤلمة والتي ما نزال نبكيها إلى اليوم ، والتي ضاعت بسبب الحماقة وتحكيم العاطفة وغياب العقل وتغلب الشهوات والأهواء .

حتى قال ابو عبد الله محمد ، وهو الذي سقطت على يديه غرناطة ، وخرج منها مطروداً ، وأضاع الملك :

« تالله لقد كتب علي أن أكون شقياً ويضيع الملك على يدي » .

هكذا ببساطة يبرر لسقوط الأندلس وهو الذي ساهم فيه بمواقفه المخزية ، وحرصه على الملذات وجنوحه إلى

الراحة ، ومصانعته لأعداء الأمة الإسلامية ، ولا شك أنه لم يكن الوحيد الذي ساهم في تلك النهاية المؤلمة .

وصل الحال بهؤلاء المناكيد أن أبا عبد الله الزغل أصاب النصارى في إحدى غزواته بكارثة مؤلمة في ناحية مما يليه من البلاد وأثخن فيهم فإذا بالملك المشؤوم ، أبي عبد الله محمد يبعث برسالة إلى ملك الأسبان يعتذر فيها ممَّا فعل عمه ويقول ما معناه : « لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا » .

هكذا ، يعتذر لأعداء الأمة على نصر تحقق للمسلمين ، يحاول فيه أن يكسب رضا الناس ، وهم أعداء الإسلام بغضب الله عز وجل فغضب عليه الله ، وأغضب عليه الناس .

ولهذا « المنحوس » أبي عبد الله حادثة أخرى تفضح خسته ونذالته ، وذلك يوم بعث يهنىء الملك فردناند لاحتلال مدينة مالقة حيث حوّل مسجدها إلى كنيسة وكان مسجداً عظيماً .

هكذا بعث له يهنئه لمجرد أنه عدو لعمه أبي عبد الله الزغل ، وكانت مالقة معقلاً لعمه .

« من طلب رضاء الله بغضب الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن طلب رضى الناس بغضب الله غضب الله عليه وأغضب عليه الناس » .

لقد كان ما كان وما نزال غاضبين عليه وعلى من معه من المناكيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والمؤلم حقاً ، ومما يحز في النفس أنه كان من الممكن تدارك الأمر لولا خيبة هؤلاء وانهزامهم من داخل نفوسهم الضعيفة ؛ فقد كان هناك سلاح ورجال راغبون في الصمود وفي الدفاع ، ولكن القتال الداخلي فيما بينهم شغلهم وأصبحوا يوجّهون الضربات لبعضهم ، وعدوهم يترصد لهم ، ويستفيد من كل ذلك ، بل كانوا يشجعونهم على الاقتتال فيما بينهم ، وهم ينساقون في بلاهة وبلادة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، وكان الأعداء يشجعون اقتتال الأمراء والقادة ويذكّون نار الفتنة فيما بينهم ، وينصرون بعضهم على بعض طلباً للفتنة وتفريق الصف وتمزيق القوى وتشتيت الطاقات ، وكان لهم ما أرادوا حتى أضعفوهم ثم انقضوا عليهم ، وكانت الكارثة المدمرة . وهذا وصف لإحدى تلك الحماقات « ولما وصل أبو عبد الله إلى الحاضرة ـ أي غرناطة ـ ثار عليه والده وأصحاب والده من جهة ، وانتصرت له أمه ومن إليها من جهة أخرى ، فكان هناك في ذلك الوقت الضيق ، مشهد الحماقة الأعظم وجرى من الأمور المنكرة ما ليس في كتاب ، وامتلأت الأسواق بالمقاتلين بعضهم ينادي باسم أبي عبد الله وبعضهم ينادي باسم والده أبي الحسن ، فسالت الدماء وأصبحت حمراء غرناطة اسماً على مسمى » .

والمتتبع لأبعاد هذه الكارثة الختامية يجد أنها بدأت يوم اتخذ الملك (أبو الحسن) محظية اسبانية انجبت له أولاداً ، إضافة إلى أولاده من ابنة عمه عائشة ، وكان أكبر أولاده من زوجته الاسبانية هو « يحيى » . ورغب « أبو الحسن » أن يسند ولاية العهد لابنه هذا من زوجته الاسبانية بدلاً من « أبي عبد الله » ابنه الأكبر من عائشة الحرة الكريمة ، وبذلك أحدث فتنة كبرى أدت إلى تمزيق ما بقي من غرناطة في وقت كانوا جميعاً في خطر شديد يحدق بهم من كل مكان . وحدثت الكارثة عندما كان « أبو الحسن » هذا الملك القزم ، والذي كان يسمي نفسه سلطاناً وما فيه شيء من همم السلاطين ولا من عزائم الملوك ، كان هذا المنحوس يقاتل أو قل يقتتل هو وأخوه الزغل ، وإذا بفتنة أخرى تبدأ بقتال ابني الملك « أبي الحسن » ، ابنه من الحرة « عائشة » وابنه من المحظية الاسبانية « ثريا » . وانقسمت المدينة إلى قسمين متعاندين وشقين متقاتلين ، وحدث ما حدث مما مهَّد لنهاية ما بقي من الأندلس بسبب هذا اللعب واللّامبالاة ، وفقدان المسؤولية وتغليب المصلحة الشخصية على مصلحة الأمة واتباع الهوى .

وهكذا نقضوا العهود ، وأخلّوا بالإيمان بعد توثيقها ، وكانوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة ، وهكذا . . . زلّت الأقدام بعد ثبوتها ، وقامت غرناطة ، تلك المدينة الصامدة الأبية ،

بخلع أبي الحسن وبويع ابنه أبو عبد الله ملكاً ، وفر هو من وجه ابنه إلى إحدى مدن الساحل وأعلن أن ابنه قد شق عصا الطاعة ، ثم ما لبث أن رجع يحكم جزءاً من غرناطة ، وأخوه الزغل يحكم جزءاً آخر ، وجزء ثالث وهو الأكبر يدين بالولاء لأبي عبد الله .

فلننظر هذه المهزلة الثلاثية في وقت كان القشتاليون يضيقون فيه الخناق على غرناطة ويترقبون سقوطها . وكان سقوطها الأول من الداخل ، من داخل هؤلاء المناكيد الذين أضاعوها ، وأضاعوا أنفسهم وجعلونا نبكيها حتى اليوم .

تذكرت الأندلس المفقود ، وأنا أقف فوق الهضبة التي بها المكان المسمى « بالمدينة » و « الرباط » ، ثم تذكرته وأنا استمع إلى المؤذن الشيخ محمد السعدي وهو يرفع أذان العصر ، وأخذت بيد الأخوين أحمد وفارس القحطانيين لنصلي خلف الشيخ وقلت في نفسي : ترى من هو المنحوس الذي ضيّع « مالطة » كما ضاعت صقلية والأندلس بكامله ، وتذكّرت حافظ ابراهيم وهو يستمع إلى أحمد شوقي يرحمهما الله . فعندما سمعه يردد البيت الأول :

فما الأذان أذان في منارته
إذا تعالى وما الآذان آذان

قال حافظ . . بل قل :

إذ الأذان أذان في منـارتـه
إذا تعـالى ومـا الأذان آذان

وقـد صدق حـافظ فقـد بقي الأذان هـو الأذان ، ولكن الأسماع هي التي اختلفت والهمم هي التي تبدّلت :

ولي عودة لموضوع مالطة إن شاء الله ، ﴿ **والله غـالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

(١) سورة يوسف ، الآية ٢١ .

مجانين قومنـا

« اللهمَّ ألطف بنا فيما جرت فيه المقادير » ، « ربّ ارفع غضبـك عنا ، ولا تؤاخـذنا بمـا فعل السفهـاء منا » ، « اللهمَّ رحمتـك أوسع لنـا من ذنوبنـا » ، اللهمَّ لطفـك وقد حـذّرتنـا ﴿ **واتّقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾[1] .

ردّدت هـذا الـدعـاء ، وأنـا أستعـرض بعض النمـاذج البشرية التي أقحمت نفسها ، أو أقحمتها عوامل خارجية على حياة أمتنا لتلعب أدواراً معينة ، وكانت لها ويا للأسف الشديد آثار مدمّرة مسَّت سلامة الأمة بمجموعها ، ومسَّت كرامتها في الصميم ، مما يجعلنا نتصوّر أن مستشفيات الأمـراض العقلية في عالمنا ، أو ما تسمّىٰ عرفـاً « بالمـرستان » ، لا تضم كـل المجانين الذين يجب أن يـوضعوا وراء أسـوارها ، وأن عـدد المجـانين « المفلوتين » أو « المسـرّبين » هم أكثـر بكثيـر من المحتجـزين ، بل هم أكثـر خطراً منهم ؛ أي من نـزلاء تلك المستشفيات .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥ .

ولقد تسببت تلك « النماذج » في إيذاء الأمة كلها حتى أصبح بعض شعوبها ألعوبة في أيدي الدول الكبرى وتحوّل العقل ـ هناك ـ إلى جنون ، والموضوعية إلى جدل عقيم ، والعلم إلى ارتجال ، والإيمان إلى مروق ، والثقافة إلى جعجعة لا طحن خلفها .

ومن تلك النماذج من ركبه جنون العظمة ، والاستعلاء على الناس والفردية ، وظنَّ نفسه رجلاً تاريخياً قد اجترح إنجازات تهون أمامها إنجازات من سبقه من الحكّام والولاة ، فإذا بنا نراه قد استخفَّ برأي الجماعة وساومَ مساومة خاسرة ، وأدخلنا في محنة أعظم من محنتنا التي نحن فيها ، وفرح بالعاجلة غير متحسب لأبعاد المصير ، واشترى رضا نفسه بغضب الله وغضب الناس ، وانتهى إلى معادلة خاسرة خائبة ، وأصابتنا الفتنة في أعماقنا ، ولم يقتصر البلاء عليه .

ونموذج آخر .

رجل أعطاه الله ثروة وجاهاً ؛ فراح يستثمرها في معصية الله ، ويحارب الله بنعمه ، ويعصيه بفضله ، ويضيع أول ما يضيع أهله وأبناءه ، يغدق عليهم في الصرف من حلال وحرام ، دون تحسّب لمصدر رزقه من أين جاء ، ولا في أي شيء ينفقه ؛ فيكون مأكله ومأكلهم حراماً ، ومشربه ومشربهم حراماً ، ومرقده ومرقدهم حراماً . فاللهمَّ استر ، كيف ؟ !

وأنّى يتقبل منه أو ممَّن جنىٰ عليهم ﴿ **وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾[1] .

ونموذج عام ، في أمتنا .

أمة أكرمها الله بنعيم وبمبادىء وبنظام حياة كامل متكامل ، جعلها خير أمة أخرجت للناس ، وجمع كلمتها بعد شتات وأسّس لها كياناً بعد ضياع . هذه الأمة ، تقع في محنة وتعود للفرقة والشتات والتمزّق والضياع ، ومع أنها في ورطة فإنها أيضاً في غفلة كاملة عن الالتفات للمنهج الذي أخذ بيديها في يقين معرضة عنه ، بل ومتنكرة له أحياناً ، وكأنها لم تجرب هذا المنهج ولم تعرفه . ويستمر الضياع والتمزق ، والكل في وضع « مكانك درْ » في حلقة مفرغة ، وإذا تدافعت إلى نهضة فلا أكثر من مجرد مظاهر وشعارات براقة المظهر ، خربة الجوهر ، وفي الممارسة العملية كـ « الذين يخربون بيوتهم بأيديهم » ، بل إن الأدهىٰ من ذلك أن يتنادىٰ بعض « النشامىٰ » من رؤسائها باختصار الكتاب ، الذي ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[2] أو يلونه ، وكأننا في كرنفال ، ثم لا تسلم منه السنّة ، ينكرها أو يدعي بطلانها ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ٩ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٤٢ .

دون وعي ولا سند ، ولا تحسّب لأبعادها . هذا العبث الذي لم يقدم عليه ولا حتى غلاة المنحرفين من المستشرقين أو أعداء الدين ، فهل هذا عقل أم جنون ؟! .

رجل له موقف وعليه مسؤولية أمة يتحول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في غمضة عين ، ويعمد إلى الارتجال واللامبالاة ، وربما « الفهلوة » في مواقفه ، ويظن أنه ذكي ، وأنه يخدع الناس ، كل الناس ، ولا يحس بأنه إنّما يخدع نفسه ويهزم أهدافه ، ويفقد الناس الثقة في كل ما يقول ويعمل ، وقد ينفضّ الجمع عنه ، وهو في غفلةٍ لا يدرك أبعاد المصير الطبيعي لهذا اللون من الخداع والارتجال .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾[1]

ولا يدرك صاحبنا الحقيقة المرة ، وهي « أنك تستطيع أن تخدع بعض الناس ولبعض الوقت فقط ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت ، فهذا مستحيل » . وقد لا يدري صاحبنا أن هذا التصفيق والهتاف قد يكون تصفيقاً عليه ، وليس تصفيقاً له . فهل هذا عاقل أم مجنون ؟! .

وهكذا نحسّ بخطورة الوضع ، وندعو الله :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٩ .

« اللهمَّ استر العاقبة ، اللهمَّ احفظنا من « المجانين » من قومنا ؛ فهم أشرّ من أعدائنا ، وأعظم خطراً علينا . اللهمَّ إنهم قتلوا من أبنائنا أكثر مما قتل أعداؤنا وشرّدوا منهم أكثر مما شرد أعداؤنا ، وامتهنوا منهم أكثر مما امتهن أعداؤنا ، وعبثوا في كتابك بما لم يعبث به أعداؤنا وأنكروا من سنة نبيك عليه الصلاة والسلام ما لم ينكرها بعض أعدائنا ، ومزقوا أكثر مما مزقنا الأعداء ، وفرقونا شيعاً ومللاً وأحزاباً أكثر مما صنع أعداؤنا . اللهمَّ أعطنا القدرة على الفهم حتى نميّز ، وحتى نعرف أجنون هذا ؟! أم خيانة ، أم جاهلية ؟! . .

الفتنة نائمة

يرى الكثير من العقلاء أن موضوع انحراف العلماء ، وفساد رجال الفكر قضية خطيرة تسيء للأمم ، وتأخذ بيدها إلى التدهور والضياع والخراب والعكس بالعكس . وصلاح أهل العلم واستقامة أهل الرأي يكون بهما وبما يمثّلانه من العوالم رفعة للأمم وعلوّاً لشأنها وصلاح الجيل الذي تبني عليه الأمة آمالها ؛ لأن الجيل يتربّى عادة على هذه المبادىء والأفكار التي ينشأ عليها . ومن الخطورة بمكان أن ينشأ على أفكار قوم منحرفين أو فاسدين أو ممَّن يقولون ما لا يفعلون ، ظناً منهم أن لا أحد يعلم بذلك ويستمرون يخادعون الله والذين آمنوا دون أن يعلموا أنهم في الحقيقة إنَّما يخدعون أنفسهم ولكن لا يشعرون ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاَّ أنفسهم وما يشعرون** ﴾[1] .

وأي فساد أعظم من أن يبيع الإنسان دينه بدنياه ، أو

(١) سورة البقرة آية ٩ .

يتجاوزه إلى بيع دينه بدنيا غيره « شركم من باعَ دينه بدنياه وأشرّ منه من باعَ دينه بدنيا غيره » .

وإذا نظرنا عبر التاريخ الطويل رأينا حقيقة ماثلة في جميع الأديان ؛ فالكوارث التي أصابت الأمم كانت بسبب فساد علماء تلك الأمم ممَّن كتموا أو حرّفوا أو نحو ذلك ، فحلت بأممهم ألوان من البلاء والشقاء ، ولذلك حرص الله سبحانه وتعالىٰ على أن يحفظ هذا الكتاب ولم يتركه لأحد مثل الكتب السماوية السابقة التي قالَ عنها بما استحفظوا من كتاب الله ، بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ﴿ **إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[1] .

ويعني هذا الأحبار والرهبان الذين كانوا يستحفظون الكتب السماوية السابقة ، أما القرآن الكريم فقد تكفَّل الله بحفظه ﴿ **إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون** ﴾[2] .

وعبر التاريخ ـ أيضاً ـ انحرف العلماء ؛ والرهبان مثلاً

(١) سورة المائدة آية ٤٤ .
(٢) سورة الحجر آية ٩ .

في الكنائس في العصور الوسطى كانوا يستقبلون فتيات المجتمع من كل صنف ومن كل لون فيأخذونهنَّ إلى الأديرة للتبتّل ولعدم الزواج يهبن أنفسهنَّ للدير ، وكان هؤلاء القساوسة يشجعون الفتيات على ذلك . وعلى الرغم من تعطيلهم لسنّة من سنن الحياة إلاَّ أنهم كانوا يشجعونهنَّ على ذلك ، فكانت الفتيات يفدن ويعشن داخل الأديرة والناس في الخارج يعتقدون بأن ذلك خدمة للدين ، فلما هدمت الكنائس واكتشفت الآلاف من جماجم الأطفال عرف الناس أن هؤلاء الأحبار والرهبان كانوا على درجة كبيرة من الفساد والعصيان لأوامر الله ، وقد كانوا لا يكتفون بجريمة الزنا بل يقتلون الأطفال درءاً للفضيحة فيرتكبون جرائم مزدوجة فيها قتل النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق ، فهزَّ ذلك المجتمع لأن الفساد من تلك الطبقة فساد مذهل ؛ فساد يهزّ الناس في أعماقها بعد أن كانوا يثقون في هذه الفئة فتكشّفت لهم حقيقة قوم يقولون ما لا يفعلون ويأتون ما ينهون الناس عنه ولا ينتهون ، فتكون عندها الفاجعة .

ويروي لنا التاريخ كيف أن علماء اليهود لم يقفوا عند حد مخالفة الإسلام فقط أو البعد عنه ، بل قادتهم العصبية الحمقاء والفساد الذي أصابهم إلى تفضيل الوثنية على الإسلام وتفضيل المشركين على المسلمين مع أنهم يلتقون معنا على الأقل في عبادة إلّه واحد وفي نبذ الأصنام ، وكان يتوقع منهم

ألاَّ يقفوا مع المشركين ضد المسلمين وهم يعلمون ما يعلمون عن الإسلام وعن الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم خصوصاً الراسخين في العلم منهم ، ولكن عداءهم للإسلام دفعهم إلى ذلك عندما التقوا قريشاً وكما تقول الرواية : التقىٰ بعض كبار قريش ولعلَّه أبو سفيان وقال لعلماء اليهود : يا معشر اليهود ، إنَّكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ . فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق . وبهذا كذبوا ولم يقولوا الحقيقة وهم يعلمونها ، حتى أن عالماً يهودياً وهو الدكتور إسرائيل ولنجسون علَّق على هذا الموضوع بقوله : « إن الذي يلامون عليه بحق ، والذي يؤلم كل مؤمن بإلّه واحد في اليهود والمسلمين على السواء ، إنَّما هو تلك الممارسة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » . ثم يقول ولنجسون : « إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب والتوسل بالخداع والأضاليل للتغلب على العدو ، ولكن مع هذا كان واجب هؤلاء اليهود أن لا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وأن لا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ، وبنو إسرائيل كانوا قبل قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ،

والـذين نكبوا بنكبـات لا تُحصى من تقتيل واضـطهـاد بسبب إيمانهم بربّ واحد في عصور شتّىٰ ، فكان واجبهم أن يضحّوا بحياتهم وبكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشـركين لا أن يناصروهم على المسلمين الذين يؤمنون بإله واحد كما تؤمن به » . انتهى حديث الدكتور ولنجسون .

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أوضح هذه القضية بالآية الكريمة مشيراً إلى هذه الحادثة ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** ﴾[1] .

ومن الخداع الذي تعوده الرهبان والأحبار ما أوضحه الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿ **وقالت طـائفة من أهـل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعـون * ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبـع دينكم قُلْ إن الهدى هدى الله أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم** ﴾[2] .

وبهـذا يعتبر فسـاد العلماء وانحـراف أهل الفكـر قضية خطيرة كما ذكرت في البداية .

---

(١) سورة النساء ، آية ٥١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٧٢ ـ ٧٣ .

لذلك نجد أن الإسلام كرّم طريق العلم وأجـلّ العلماء ومـا أكثـر الآيـات التي جـاءت في هـذا المضمـار ومـا أكثـر الأحاديث : ﴿ **وقُل ربِّ زدني علماً** ﴾[1] ، ﴿ **إنّما يخشىٰ الله من عباده العلماء** ﴾[2] ، ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[3] .

ومن الأحاديث مثلاً الحديث الذي يُروىٰ عن حفص بن عمر عن عثمان بن عطاء عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « ما سلك عبد طريقاً يقتبس به علماً إلاّ سلك به طريقـاً إلى الجنة ، وأن المـلائكة لتضـع أجنحتها لطالب العلم رضـاً عنه وأنـه ليستغفر للعـالم من في السمـوات ومن في الأرض حتى الـحيتـان في البحـر » . والحديث الآخر الذي يرويه صفوان بن عسّال المرابي قـال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت : يـا رسول الله إني جئت أطلب العلم فقـال : « مرحبـاً يا طـالب العلم ، إن طالب العلم لتحفّه الملائكة وتظلّه بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضـاً حتى يبلغـوا السمـاء الـدنيـا من حبهم لمـا يطلـب » . وحديث ثالث عن صفوان قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « ما من رجل خرج من بيته ليطلب العلم إلاّ

---

(١) سورة طه آية ١١٤ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

(٣) سورة المجادلة آية ١١ .

وضعت له الملائكة أجنحتها رضاً لما يصنع » .

كل ذلك جاءَ في تكريم العلم وطلّاب العلم ، ولم يقتصر تكريمهم في الدنيا ، فهناك حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « يشفع يوم القيامة للأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، ولعلَّ هناك بعضاً من المفسّرين يذهب لتفسير قوله تعالى : ﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾[1] ، بأن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة والجنة في الآخرة .

وهكذا وضع الإسلام للعلم الدرجات العليا والكبرى وكرَّم العلماء ، ولكنه في الوقت نفسه حمّلهم مسؤوليات عظيمة ، ويُروى عن أبي الدرداء قوله : « ويلٌ للذي لا يعلم وويلٌ للذي يعلم ولا يعمل » ، ولعلَّ من يتدبَّر هذا الأمر يدرك خطورة العالم الذي لا يعمل بعلمه .

ويُروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « من تعلّم علماً لغير الله أو أرادَ به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » .

وهناك أحاديث كثيرة تحذّر الذين يتفقّهون لغير العلم ولغير العبادة والذين يستحلّون الحرمات ، حرمات الله بالشبهات .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

ولقد ذكر أن عبد الله بن المبارك أخبر بكاراً قال : سمعت وهبة بن منبّه يقول : « إن الله عزَّ وجلّ فيما يعاتب به أحبار بني إسرائيل : تفقهون لغير الدين وتعلمون لغير العمل وتبتاعون الدنيا بأعمال الآخرة ، وتلبسون جلود الضأن ، وتخفون نفوس الذئاب وتتّقون الغذاء من شرابكم وتبتلعون مثل الجبال من الحرام ، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال ، تطلبون الصلاة وتبيّضون الثياب ، تنتقصون مال اليتيم والأرملة ، فبعزّتي حلفت لأضربنَّكم بفتنة يضلّ فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم » . ويُروى عن الفضل بن عيّاض قوله : « إن الله عزَّ وجلّ يحب العالم المتواضع ويبغض العالم الجبار ومن تواضع لله ورّثه الحكمة » .

وهكذا نجد الآثار التي ترتبت على كتمان بعض الأحبار أو الرهبان أو العلماء لبعض تعاليم الله سبحانه وتعالى كـ « نتيجة لأهوائهم أو رغباتهم أو عصبيات لا مبرر لها ، كان أولى بهؤلاء أن يكونوا من أول وأحسن المطبّقين لأوامر الله سبحانه وتعالى فهم القدوة الحسنة لأممهم كما هو مفروض فيهم » .

ولعل الفتنة الكبرى في صدر الإسلام وبين رجال عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربّوا بتربيته تعطينا الفكرة عن خطورة تسلّط الشيطان على مفكري الأمة حتى أنه

لم يحل بينهم وبين الفتن أي شيء فأدّى ببعضهم انحراف الفكر والعصبية وفساد الرأي إلى فتنة ذهب ضحيتها الكثير من المسلمين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حفظة القرآن الكريم ، ثم تتالت ذيولها فذهب من ذهب من التابعين ومن ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدلّ ذلك على أن انحراف المفكرين وفساد آراء العلماء واتّباعهم الأهواء يؤدي إلى كوارث قاتلة ومفجعة ؛ فهؤلاء ، كما أوضحت ، قوم عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فقد وقعوا في الفتنة كنتيجة حتمية لفساد رأي المتأوّلين بالباطل والمنحرفين أو المحكّمين لآرائهم دون سند من كتاب الله ولا سنّة رسوله ولا اجتهاد أو قياس صحيحين . ولهذا كان من الأهمية اختيار الناس لجلسائهم وبصورة خاصة الولاة والحكام والعلماء ، يجلس بعضهم إلى بعض يتناصحون في الله لا يخشون فيه لومة لائم .

ولو تتبعنا التاريخ الإسلامي أيضاً في فترة من فترات الازدهار العلمي وهي عصر المأمون ، حيث قامت حضارات قوامها توحيد الله والمساواة بين الناس وانصهرت جنسيات وطوائف في حركة علمية كبيرة استطاعت أن تثري جوانب مختلفة في الحياة الإنسانية ، وكان لتلك الحركة العلمية أثرها البالغ في تاريخ البشر حيث دلّت على أصالة البحث العلمي في هذه الحضارة الإسلامية العريقة ، ولمع الكثير من

العبقريات في هذا الوقت بالذات ، ولقد جعل المأمون العلم أثمن من الذهب في أيامه ، وكان له دور كبير في تشجيع العلوم وفي نهضتها ، ولكنه وقع في مشكلة كبرى كنتيجة اجتهاد عالم من جلسائه أدى به الانحراف إلى الزجّ بالمسلمين في متاهات فتنة خلق القرآن التي جلبت المشاكل الكبرى على كثير من العلماء والمفكّرين المسلمين فقُتِلوا وشُرِّدوا وأُهِينوا .

وليت فتنة خلق القرآن وقفت عند هذا الحد ، فقد استمرت بعد ذلك على فترات طويلة وحمل لواء هذه المحنة وروّج لها العالم المعروف أحمد بن أبي دؤاد ، وهذا يوضح بجلاء كيف أن انحراف أهل الفكر والعلماء تكون له نتائج مدمرة على الأمة في كثير من الأحيان .

فليت شعري ! هل يعي العلماء في عصرنا هذه الدروس عبر التاريخ ؟ فلا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يحرفون أو يكتمون أو يصانعون أعداء الله ليشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، ولا يحلّون حراماً يبيعون دينهم فيه بدنياهم ، ولا يحرّمون حلالاً يريدون به مجرد العصبية أو إرضاء الحكام ، أو يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق دون وجه حق إلا أهواء ونزوات ومبررات ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن لا يتخذوا من وصولهم إلى الغلبة والنفوذ وسيلة للانتقام ومحاربة مخالفيهم

في المعتقدات ومحاولة بث الفرقة والشقاق بين أبناء الأمة الواحدة .

وليت شعري !

هل يعودون ليأخذوا بأيدي الناس من الظلمات إلى النور بدلاً من أن يسيروا خلف جاهلية ضالة تأخذهم إلى ظلمات بعضها فوق بعض ؟ !

ربّ الطف بنا ، وأصلح أحوالنا وخذ بيد علمائنا ليأخذوا بأيدينا ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ﴿ **ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا** ﴾[1] .

﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢١ .

سلام لا ضعف فيه

من العقلاء من يرى أن ليس من المروءة أن تقول لا في وقت تستوجب فيه مصلحة الوطن والأمة أن تقول نعم ، وليس من الشجاعة أن تقول لا في وجه الأقوياء لمجرد أن تكسب تصفيق الضعفاء .

ومن العقلاء من يؤمن بأنّ من الواجب أن نثق في أنفسنا ، ونثق في بعضنا ، وأن تكون منطلقاتنا واضحة ، ولغتنا سليمة وعفيفة وأن نتكلم بلغة واحدة حتى يسمعنا الناس وتكون لدينا القدرة على صناعة قرار السلام أو قرار الحرب .

ومن العقلاء من يرى أن الواجب يحتم علينا أن نكون أقوياء في حوار السلام تماماً كقوتنا في ساحات القتال لا نهن ولا نضعف ونظل نشعر بأننا الأعلون دائماً .

ومن العقلاء من يرى أنّ من التقوى والحكمة حقن دماء المسلمين وعدم إهدارها في غير حق .

ومن العقلاء من يرى حقيقة أن الحكمة ضالة المؤمن ،

ومن العقل دون شك أن نعود إلى السيرة النبوية وهي زاخرة بالمثل والدروس والعبر في كل المواقف .

وما يزال العقلاء في كل زمان ومكان يرون فيها « خطة » كاملة ، أو « استراتيجية » حيث تبعث هذه الكلمة بريقاً لأبناء هذا العصر عندما يريدون التعبير عن منهج متكامل ـ وإن تعددت مراحله ـ لبلوغ هدف معين وأسلوب عمل للتعامل مع الواقع ، وفن تغييره وتطويره ، لخدمة الأهداف العليا والمرامي البعيدة المتوخاة .

وإطلالة الطائر ـ كما يقولون ـ تتيح عادة نظرة شمولية تحيط بأطراف الأحداث ، وتوفر فهماً أكثر استيعاباً وأدق تقويماً ، ولو ألقينا هذه النظرة ، لوجدنا أن هناك لحظات في التاريخ يتعيّن على القائد فيها أن يحزم أمره ، ويقطع برأيه ، ويحكم بما شرح الله صدره له ، دون أن يرده عن ذلك جدال بعض صحبه ، ولا تململ من لا يرون جوانب الحق والحكمة في رأيه من بين أنصاره .

صح ذلك في التاريخ عامة ، كما صح في تاريخ الإسلام ، وكما نستلهم ذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعض الذي أشرنا إليه عن إلهام اللحظة للقائد أو حسّه الملهم ، تعلّمناه في « صلح الحديبية » .

بدأت معارك المسلمين مع المشركين الذين أخرجوهم

من ديارهم وأموالهم بغير حق ، بعد أن استقرت أوضاعهم في المدينة بعد الهجرة ، وكتب رسول الله عليه الصلاة والسلام كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم (راجع سيرة ابن اسحاق جـ ١ ص ٣٤٨ ، ٣٥١) ، وكان الجهاد لا ينقطع في المدينة ، بناء الإنسان ، بناء المسجد ، بناء الأسرة والمجتمع ، بناء الدولة ، ثم حماية هذا البناء بسياجات من التشريعات الخلقية ، في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والقتال ، وسوف نتبين عدداً من الملاحظات بالغة الأهمية تستحق التأمل في مسيرة الجهاد أو استراتيجيّته وتقنيّته .

● **الأولى** : كانت « بدر » أول معركة كبرى جرت مع المشركين وفي أعقابها كانت بنو قينقاع ، وهم أول فريق من اليهود يخونون المعاهدة ، تجلت نياتهم الغادرة وأرهصوا بها بعد انتصار بدر ، وقالوا : « يا محمد لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس » ، ثم كانوا أول من نقض العهد مع محمد عليه الصلاة والسلام .

● **الثانية** : أن المعركة الثانية مع المشركين كانت في « أحد » ، وفي أعقابها كان إجلاء يهود بين النضير بعد أن تبيّنت خيانتهم وغدرهم في سنة اربع هجرية .

● **الثالثة** : أن الزلزال الذي أوشك أن يضرب المسلمين في الأحزاب على أيدي المشركين وبالتعاون الخائن مع اليهود جاءت في أعقابه غزوة « بني قريظة » والقضاء على شنيعتهم وخيانتهم .

إذن هي معركة مع المشركين ثم معركة مع اليهود ، حتى اجتمعا معاً في الأحزاب ، وبعد هزيمتهما أطلق الرسول عليه الصلاة والسلام كلمته التي جاءت كل الأحداث بعدها مصدّقة لها :

« لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فكان هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة المكرمة .

وقبل ذلك في سنة ست قويت عزيمة الرسول على الخروج إلى مكة ، لا غازياً ولا فاتحاً ولا مقاتلاً ، وإنما مسالماً يبتغي زيارة البيت العتيق ، وكان النبي الكريم قد استعد لهم بخطة كاملة للسلام هذه المرة ، فهو :

أولاً : خرج في شهر ذي القعدة ، أحد الأشهر الحرم التي تحرّم العرب فيها القتال .

ثانياً : دعا غير المسلمين من العرب للمشاركة في هذه المسيرة حتى لا يفهم كفّار مكة أن هناك زحفاً من المسلمين عليهم .

ثالثاً : قد خرج هو وصحبه محرمين لا سلاح معهم إلا السيوف في أغمادها .

رابعاً : قد ساق أمامه الهدي ، سبعين بدنة ، ليعلم الجميع مقصده .

خامساً: اصطحب معه زوجه أم سلمة تأكيداً على نفس المعنى وإعلاناً لذات المقصد .

سادساً : حين رأى فرسان مكة على مرمى البصر ، وقد قدموا لمنازلته ، طلب من صحبه أن يختاروا له طريقاً آخر إلى مكة حتى يتحاشى الاصطدام مع عدوه إصراراً منه على السلم ، فاختار بعضهم له شعباً ضيقاً وعراً وجد المسلمون فيه مشقة بالغة حتى وصلوا إلى الحديبية .

سابعاً : عفا عن سفهاء مكة الذين خرجوا ، أثناء السفارة بينه وبين قريش ، ليقذفوه وصحبه بالحجارة ، فكان أن أخذ منهم خمسة وأربعين رجلاً ذات يوم ، وجيء بهم إليه فعفا عنهم تشبثاً منه بخطة السلم . وإعلاناً عملياً لقريش أنه لم يأتِ فاتحاً ، ولا مقاتلاً ، إنما مسالماً يبتغي الحج .

على أن الرسول الكريم ، وهو يؤكّد نيته السليمة الخالصة ، لم يكن ليأمن من غدر المشركين في أي وقت ، وكان اعتماده في ردّ العادية ومجالدة الغدر على إيمان رجاله

وشجاعتهم ووفائهم وإخلاصهم . وهنا نجد درساً من أعظم دروس الإسلام ؛ ذلك بأن العمل من أجل السلام لا يعني الاستنامة لاحتمالات غدر العدو ، وصرف النفس عن الاستعداد لها بل إنه ليؤكد ضرورة التأهب حماية للسلام وضماناً لخطته ، فمع أن الرسول الكريم استقبل رسل قريش وأسفر إليها يحاول إفهامها حقيقة مقصده إلا أنه استعد لمناجزتها حين أبطأ عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، في العودة بعد أن كان قد ارسله إليها فظن المسلمون أن قريشاً قد غدرت به ، وقتلته في الشهر الحرام ، حينئذ قال النبي الكريم لصحبه : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ، ودعا أصحابه إليه تحت شجرة في الحديبية فبايعوه جميعاً على ألا يفرّوا حتى الموت ، وفي هذا نزل القرآن الكريم ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾[1] ، وهذه هي « بيعة الرضوان » .

إن هذه البيعة ، بيعة الرضوان ، لهي بمثابة الشق الآخر ، والضروري لخطة السلام ، لأنها إعلان عن القوة ، والعزم على استخدامها إذا ركب العدو رأسه ، وأصر على رفض السلام ، والغدر بالمسلمين .

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

وكما هو معروف فإن المسلمين لم يضطروا إلى القتال في ذلك العام من الهجرة ، وإنما مضت السفارات بينهم وبين الكفار والمشركين إلى أنْ أسفرت عن صلح الحديبية الذي لا حاجة بنا إلى تفصيل القول فيه .

وهنا تطالعنا دروس عدة في شأن هذا الصلح ، وفيما أسفر عنه من نتائج وتتمثل هذه الدروس فيما يلي :

أولاً : لقد كانت المحادثات بين الرسول الكريم وسفير قريش ، سهيل بن عمرو ، قاسية ومريرة ومحتدمة ، وقد أوشكت على التوقف والانقطاع اكثر من مرة ، ولكن صبر الرسول عليه الصلاة والسلام وبصيرته النافذة كانا يعيدان اتصالها من جديد .

ولا غرو ، فإذا كان الهدف هو السلم ، وحقن دماء المسلمين ، وأداء فريضة الله وحج بيته العتيق ، فإن إعطاء الدعوة إلى الدين الجديد هدنة تستمد فيها قوة ، وتجد مناخاً أصلح لانتشارها والإقناع بها ، جهد يجب أن يكون على قدر الهدف ، وأن الصبر يجب أن يتناسب مع حجم النتيجة المرجوة أو المنشودة ، ولذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول إبّان الطريق : « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها » .

ثانياً : لقد كان المسلمون يرون تشدد « سهيل »

وتعنته ، ويضيقون بذلك أشد الضيق ؛ فقد كانت لهم مع الكفار سوابق هزموهم فيها شر هزيمة ، فلماذا لا ينفضون خطة السلم عنهم ، ويدخلون مكة عنوة ، ويحجّون إلى بيت الله أحراراً شاهري السيوف . . . ؟؟ ، ولقد كان عمر ، رضي الله عنه ، على رأس المتبرّمين بتشدد « سهيل » وما ظنّه ملاينة من النبي له ، وقد ذهب إلى « أبي بكر » يسأله في ضيق : أوَلَسْنا مسلمين فيقول أبو بكر : بلى . . بلى ، فيرد عمر : فعلام نُعطي الدنية في ديننا ؟ .

إلى هذا الحد بلغ ضيق المسلمين النابع من حميتهم وغيرتهم على دينهم ونبيهم أن يتنطع معه كافر مشرك كسهيل ابن عمرو ، وقد انقلب عمر ، رضي الله عنه ، بعد محادثته أبا بكر إلى الرسول يقول له نفس مقاله إلى صاحبه وصديقه ولكن حديثه ، وهو الحازم العادل الذي أعزّ الله الاسلام به ، لم يغير من خطة النبي ، ولا من مطاولته لأعدائه ، وصبره عليهم ، واكتفى الرسول الكريم ان قال قولته الرائعة الموجزة ، الدالة : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » .

وقد بلغت مطاولة النبي للكفار حداً أحفظ بعض المسلمين ، وزاد من حنقهم . . ذلك أنه حين دعا علياً بن أبي طالب ، وطلب منه أن يكتب صلح الحديبية وقال له : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » ورد سهيل : « إمسك ، لا أعرف هذا ولكن اكتب :

« باسمك اللهم » فكتبها ، ثم قال : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

إلى هذا الحد يبدو الرسول القائد ، لمن لا بصيرة له ولا خبرة ، وكأنه يتنازل أمام صلف أعدائه وتعنتهم ، ولكنها مجرد شكليات ترضي غرور الحمقى ، ولم تكن لتردّه صلوات الله عليه عن إبرام صلح رأى فيه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام ، وفتحاً مبيناً للمسلمين .

ثالثاً : وهو الأهم ، ماذا كان مضمون الصلح بعد تلك الديباجة أو المقدمة التي ناضل سهيل بالتعديلات عليها واستجاب الرسول لكل تحفظاته ؟ تعالوا نقرأ بنود ذلك الصلح .

● البند الأول : « واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض » .

ما هي نتيجة هذا البند ، سنجد الزهري يقول : فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد

بالإسلام يعقل شيئاً الا دخل فيه ، ولقد دخل في سنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج إلى الحديبية في الف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف (سيرة النبي جـ ٣ ص ٢٨٦ ، ٢٨٧) .

● البند الثاني : « على أنه من اتَّبع محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم » . وجاءَ اختبار هذا البند فورياً ، وكأنَّما أرادَ الله مزيداً من الابتلاء والتمحيص للمسلمين ، فلم يكد يجفّ مداد الصلح حتى طلعَ أبو جندل بن سهيل هارباً من مكة يرسف في الحديد وكإنَّما ألقى بنفسه في أحضان الأمان ، وإذا أبوه يضرب وجهه ويقول : يا محمد ، لقد لجت القضية وتمَّ الاتفاق على شروط الصلح قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فصار أبو جندل يصرخ بالمسلمين : أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فقال الرسول : « أصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله وإنَّا لا نغدر بهم » . وأكاد أسمع مصمصة شفاه القراء حسرة وهم يقارنون كلمة محمد بن عبد الله بأوثق معاهدات هذا الزمن المتحضر ، ولكن مع الحسرة اعتزاز عميق بعظمة الوفاء في الإسلام .

ثم كان من نتيجة التطبيق لهذا البند أن المسلمين الذين فروا من قريش ولم يقبلهم الرسول التزاماً بعهده لاذوا بالطرق يقطعونها على قوافل قريش ولا يظفرون بأحد منهم إلَّا قتلوه ، مما أحدث خسائر بشرية وأضراراً اقتصادية بقريش ، وفرض عليها قدراً من التعبئة المرهقة لحماية قوافلها ، انتهى الأمر بأن قريشاً كتبت إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلَّا آواهم ، فلا حاجة لهم بهم ، فآواهم رسول الله ، فقدموا عليه المدينة .

● البند الثالث : « ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمد لم يردوه عليه » . وما أعظم الخدمة التي تؤدّيها قريش لمحمد دون أن تدري لأن الذي يخرج من معسكر الإيمان ـ إن خرج ـ فهو تطهير بصفوف الحق ونفي للخبث حتى لا يبقىٰ في صفوف المؤمنين إلَّا من استصفاه الإيمان وصهره الجهاد فاستبان معدنه الأصيل .

وحين يسمح بند آخر بأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فإن ذلك لم يكن يعني فحسب الاعتراف الكامل بمحمد وأنه عدل وند لقريش وبالإسلام ديناً ، وهو ما يكفي وحده كبحاً وانتصاراً ، ولكنه كان يعني كذلك اعترافاً بشرعية أوسع نطاقاً بما في ذلك حق عقد المعاهدات ، أي اعتراف كامل بدولة الإسلام من قِبَل أشد القوىٰ عداءً له .

بقي شرط عودة المسلمين من حيث أتوا ، وألاَّ يدخلوا مكة في عامهم ذاك ، وأن يعودوا في العام التالي فيقيمون بها ثلاثاً بعد أن يخرج عنها المشركون ومع محمد سلاح الراكب .

إن محمداً في حاجة إلى الاتصال بالعالم الخارجي وها هو قد تمَّ .

نعم ! لقد كان الأمر شديد الوقع والإيلام لنفوس المسلمين ومشاعرهم وعاطفتهم الإيمانية ، ولكن في معارك الحق الكبرى تتنحَّى المشاعر لتفسح الطريق أمام المصلحة العليا التي قد تظهر واضحة للعامة أو للخاصة وقد تخفى وتدق على هؤلاء وهؤلاء ، ومحمد اليوم أشد حاجة إلى الاتصال بالعالم الخارجي ، إلى ما يسميه البعض اليوم التحرّك السياسي ليقدم دعوته ودين الله للبشر كافة ، فكانت بعوثه إلى الملوك والأباطرة ، ليزداد الإسلام انتشاراً وليتهيّأ لمرحلة أخرى سوف تجيء من بعد ، ولن يطول انتظارها ، وهكذا تبقى العدة والدرس في كل زمان ومكان ، فلا مكان للألم والمرارة في الكفاح الطويل ، بل ولا بأس أن يكون حين يكون ، إذا كان معه الرجاء من الله **﴿ أن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾**[1] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٤ .

ولا بد أن تكون هناك ضغوط نفسية وانفعالات ومشاعر ومعاناة وضحايا وشهداء وصبر ومصابرة مهما طالَ الطريق وتعدَّدت الوسائل والخطط ، عندما يكون الهدف البعيد واضحاً لا مساومة عليه ولا ترخص فيه والحرب خدعة ، وكان تخذيل فرد واحد مسلم للأعداء نقطة تحول لصالح المسلمين .

وهكذا تعلّمنا ، عبر هذا الدرس ، أن من الواجب أن نكون أقوياء في السلم تماماً كقوتنا في ساحة الحرب ، ومن العيب أن نقول لا في وقت تستوجب فيه مصلحة الأمة أن نقول نعم ، ومن العار أن نقول لا في وجه الأقوياء لمجرد أن نكسب تصفيق الضعفاء ، وأن نعود إلى الحق فهو أحقّ أن يُتّبع كما علّمنا رسول الله وخلفاؤه الراشدون من بعده ؛ فهذا عمر بن الخطاب الذي قال وقت إبرام الصلح : « علام نُعطى الدنية في ديننا ؟ » فأصبح يسمع الآيات ويقول متعجباً : هو الفتح إذن . . . نعم والبشرى من الله .

﴿ إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾[1] .

« اللهمَّ علمنا أن نقول الحق في وجه الأقوياء » ، « ولا نقول الباطل لنكسب تصفيق الضعفاء » .

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١ .

غزو جديد

من العقلاء من يرجع أسباب ما نحن فيه من تدهور ، وانحطاط وهوانٍ على الأمم ، إلى غياب المناخ الصحي الذي سادَ مجتمعنا الإسلامي الأول ، وأدَّى إلى كل ذلك الإبداع وتلك القدرة على التفاعل والتأثير والتأثّر ، والأخذ والعطاء ، فهذا لا يتم في بيئات مريضة أو مناخ فاسد تنقصه الثقة المتبادلة ، والحرية وعوامل التشجيع ، وهذا لا يتم أيضاً إلاَّ ونحن كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وإلاَّ بعد أن نصبح كالبنيان الواحد يشد بعضنا بعضاً ويعين بعضنا بعضاً ولكن على الحق ، فهو أحق أن يتبع .

ومن العقلاء من يسأل ، ونحن نشاهد كل هذه الأقمار التي أخذت تغزو الفضاء الرحب وبشكل متتابع ، ولأغراض شتّى ، ما هي أبعاد هذا الغزو الجديد ؟ وإلى أين يسير بنا ؟ وأين نحن من هذا اللون من الاستعمار الجديد ، الذي سوف يغزونا في عقر دورنا ؟ وخطورة هذا الغزو أنه يدغدغ

العواطف ، ويأتي متوشحاً ثوب الثقافة والتفاعل الحضاري ، فنقبل عليه في غفلة وبلاهة دون أن نفرق بين التفاعل الثقافي والغزو الموجّه .

والعجيب أن الناس تسمع وتتابع ؛ في بلاهة ولامبالاة عجيب ، أخبار هذه الصواريخ التي أخذت تغزو الفضاء ، تقذف فيه بالأقمار تلو الأقمار في تتابع مخيف وسباق بين القوى العظمىٰ ، والتي لا تضع في اعتبارها غير تحقيق مصالحها العليا وأهدافها الأساسية من ناحية الهيمنة والسيطرة ، وهو استعمار جديد . فالأهداف الاستعمارية لم تتغير ولم تتبدل ، ولكن الأساليب وحدها هي التي تغيرت ، وجاؤوا بتكتيك جديد جعلوا رأس الحربة فيه هذه التكنولوجيا الجبارة ، ومع أن القوى الكبرى متفقة على غزو الفضاء ، وتجاربها وبرامجها متزامنة ، إلاَّ أننا نشاهد المعسكر الغربي يدعو إلى حرية غزو الفضاء ويدافع عنه ويطالب بحق الاتصال .

ويرون أن حرية استخدام الفضاء ، دون قيود ، أمر تحتّمه حضارة القرن الذي نعيش فيه ، وتجعله حقاً لمن يشاء من الدول القادرة ؛ فهي الدول المالكة لهذه التكنولوجيا المتقدمة في مجال غزو الفضاء ، بل وهي المحتكرة لهذه التكنولوجيا ، تمنعها عن من تشاء ، أو تضع الثمن الباهظ على من تشاء ، تحتكره وقتَ ما يحلو لها ، أو تبيعها بأقسىٰ الشروط وبألوان من التعسّف وفرض الهيمنة .

أما المعسكر الشرقي ، فقد بدا وكأنه معنا في نفس الورطة ؛ فهو يؤيّدنا في المطالبة بأن المجال الفضائي لكل بلد هو مجال مصون بروح القوانين الدولية التي تصون التراب الوطني والمياه الوطنية أو المياه الإقليمية ، والأجواء الوطنية . وهكذا ، يكون الفضاء الوطني أمراً مصاناً ومحترماً تماماً مثل التراب الوطني .

ولا شك أن وقوف المعسكر الشرقي معنا أمر مضحك حقاً لأنهم يمتلكون التكنولوجيا ولا يقلّون قدرة عن الغرب ، بل ربما تفوّقوا عليه في بعض الأوقات أو بعض المجالات ، ولكنهم يخافون من المادة التي سوف تبث عبر هذه الأقمار ، والأفكار التي سوف تنقلها . وخطورة الغزو الثقافي أنه الركيزة التي يقوم عليها الاستعمار الجديد والتي تتيح له أن يسيطر ويتحكم في قيم ومفاهيم وضمائر ونوازع واتجاهات شعب من الشعوب أو عدة شعوب في وقت واحد ، وعندها تكون هذه القوة المستعمرة بالغزو الثقافي مرشحة للسيادة على هذه الشعوب ، وهنا يكمن الخطر حيث يمضي الاستعمار لغاياته ويحقق أهدافه دون عائق أو مقاومة أو تصدٍّ ، ذلك أن إرادة الشعوب ستكون مفقودة . . .

ولا شك أن القفزات التكنولوجية أحدثت في عالمنا اليوم خللاً في طبيعة العلاقات ، ونوعاً من عدم التوازن بين الدول

النامية ، والدول المتقدمة صناعياً وتكنولوجياً وأدّى هذا إلى سيطرة شبه كاملة على مصادر المعلومات ودورتها ، وأوجدت فجوة كبرى وهوة سحيقة بين الدول النامية والدول المتقدمة ، أو بصورة أدق بين من يملكون التكنولوجيا ومن لا يملكونها .

وإذا عدنا لموضوع حماية الدول من هذا الغزو الخطير نرى أن الأمم المتحدة أنشأت لجنة خاصة للاستعمالات السلمية للفضاء الخارجي وسمّتها بهذا الاسم عام ١٩٥٨ م ، وقد توصّلت في عام ١٩٦٧ م إلى إصدار قانون يدعى الاتفاق على الفضاء كالتالي :

إن الفضاء الخارجي بما فيه القمر والأجسام العلوية الأخرى يمكن ارتياده واستخدامه بكيفية حرة من قبل جميع الدول دون أي تمييز في نطاق شروط المساواة وطبقاً للقانون الدولي على أن يكون الوصول إلى جميع نواحي الأجسام العلوية محفوفاً بكامل الحرية ، وعلى أن يتم ذلك طبقاً للقانون الدولي بما فيه ميثاق الأمم المتحدة ؛ وذلك لإقرار السلام والأمن الدوليين وإثراء التعاون والتفاعل الدوليين .

وعلينا أن ندرك كيف يخدم هذا القانون ، وبهذه المرونة ، أهداف الدول الكبرى ، وييسر أمامها الطريق بل ويفضل الإشارة إلى الأخطار الناتجة من عملية التطبيق من قبل الدول المهيمنة .

وهكذا ، تستمر المعادلة ، ويستمر الخلل وعدم التوازن ، ونبقى نحن ننظر ونتعجب وربما ننفعل ، ولكننا نراوح في مكاننا ، ويبقى السؤال المهم : إلى أين يسير بنا هؤلاء ؟ وما هي أبعاد هذا الغزو ؟ ولماذا تحولنا من أمة قوية إلى شيع متفرقة ضعيفة ؟

وماذا دهانا حتى تحولنا من أمة فاعلة إلى شعوب مفعول فيها ومفعول بها ، ويستكثرون علينا أن نصبح حتى مفعولاً معها ؟

ليت شعري ! متى يبدأ العد التصاعدي ؟ ومتى نبدأ المسيرة ، أو نفكر في اللحاق بالركب ، ونؤمن بأهمية بناء الأجيال ، وندرك أهمية المناخ الصالح والحرية والعمل الجاد ؟؟ فهذا المناخ الذي سادَ المجتمع الإسلامي الأول هو الذي جعله مجتمعاً صالحاً ، وعلينا أن نذكر أن موقف الإسلام ومرونته ودعمه وتشجيعه للعلم كان هو العامل الأساسي ، بل المحرّك الكبير للحياة في شتّى جوانبها ودافعاً للإبداع والانتاج ، وإلى لقاء .

شياطين الإنس والجن

بعض الزعماء والمفكرين ، في الدول الإسلامية ، لا يختلفون مع الأسف في غوايتهم للشعوب عن الشياطين وبعضهم أضلّ سبيلاً . الشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء ويزيّن للناس ويضلّهم أعمالهم ، وقد طلب من الله أن ينظره إلى يوم البعث ليمارس غواية البشر ويصدّهم عن سبيل الله . وذلك البعض من زعماء السياسة وزعماء الفكر تولّوا أمانة القيادة السياسية لشعوبهم أو الريادة الفكرية لها ، فما رعوْها حق رعايتها ، ولا كانوا أمناء مع تاريخها وأصالتها ومعتقداتها ، فحملوا ألوية ليست ألويتها ، ومضوا يقودون شعوبهم أو يدعون أتباعهم للضياع .

لقد خرجت الشعوب من فترات كفاح طويلة ضد الاستعمار الغربي على وجه الخصوص ، وكان لذلك الاستعمار دوره المرير في تكريس التخلّف في ظل القهر والممارسات المخططة لإذابة الشخصية وتشويه الثقافة ومحاربة التراث ومحاولة طمس المعالم التي كان من شأنها أن تبقي

على جذوة اليقظة والنهوض .

وليس هنا مجال مناقشة ما إذا كان الاستعمار هو المسؤول الأول والأخير عن انحطاط العالم الإسلامي ، أم كان هو النتيجة الحتمية لذلك الانحطاط والاضمحلال ؛ فتلك قضية أخرى تحتاج إلى إفراد دراسات موضوعية متأنية تعيد قراءة التاريخ .

ولكن الذي يبقى غير مختلف عليه في أكثر بلاد العالم الثالث ، ومنها الدول الإسلامية .

أن الاستعمار ، سواء كان سبباً أو نتيجة ، مارس ضغوطه الثقيلة لاستيفاء الجهل وأوضاع التخلّف لاستدامة وجوده على أراضي الشعوب المستعمرة ، وفي بيئة الجهل والتخلّف لا تنبت فكرة واحدة وإن قامت أوثان متعددة ، بعض تلك الأوثان اصطنعها لنا وبعضها صنعناها لأنفسنا ، وحيث غابت حقيقة الإيمان تولّدت أوثان السياسة متمثلة في بدايات التحرر في مسميات ، كالديمقراطية ، والاشتراكية ، والعلمية ، كما تمثلت في زعامات وقيادات أرادت أن تضمن القرابين فذهبت تلوك بألسنتها أفكاراً ومبادىء من هنا أو هناك ، حيث توهّمت أنها لو طرحت عطاء الأصالة فلن يكون لها فضل ، هذا إذا لم تتهم بالرجعية ، أو ربما لم تفعل لأنها نبتت في غربة عن تلك الأصالة وفي غياب الوعي بالذات والعقيدة والمنهج .

ثم أدركت الشعوب أن التاريخ لا يوقظ النيام ، وأنه لا يكفيها أن تستلم لدغدغة الأحلام مع صفحات مشرقة فيه ، تجترّ معها بطولات ذهبت وانقضت ، لأنها تستيقظ بعد ذلك لا محالة على الواقع المحزن وتفيق على كابوسه تتجرّع ذله وسطوته وقهره ، فقامت خلف تلك الزعامات السياسية والفكرية تردد الشعارات البراقة وترفض « السيد » الذي أذلّها ، وفي مخيلتها دائماً « الكرباج » الذي طالما أنّت من صرخاته على ظهورها « فكافحت وناضلت » .

وعندما أقبلَ عليها أول قادم يرفق بها ويلعن جلاّدها ويضمد جراحها ألقت بنفسها بين ذراعيه تنهنه على صدره وتلتمس الراحة في أحضانه ، ولم تر السكين في يده الأخرى ، وإنّما سمعت صوته يصب على رأس الاستعمار « والإمبريالية » ما لا مزيد عليه ، ويلعن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ويشجب امتصاص دماء الشعوب الفقيرة والمستغلة . . . و . . . ثم يعرض مساعدته عليها للنهوض بها من كبوتها، ويفتح أمامها خزائنه لتأخذ ما تشتهي من أسلحة وبلا مقابل ، اللهمّ إلاّ بعض الالتزامات البسيطة !!

وليس معنى هذا أن مفتاح السجن مع السجّان ، حاشىٰ لله ، ولكن الأمر يقتضي فقط أن يتمتع الطرف الأول بقدر مناسب من حسن الخلق والصداقة والامتنان المستمر والولاء ،

وليس الطاعة والتبعية ، كما كان في ظل الاستعمار « والامبريالية » ، كذلك فالاستعداد كل الاستعداد قائم لتزويد الشعوب المناضلة بالمصانع والتكنولوجيا .

صحيح أن الأصدقاء أنفسهم يبحثون عن التكنولوجيا المتطورة عند نفس الأعداء من الاستعماريين والإمبرياليين ، لكن هذا أمر يخضع لتحليل من نوع آخر لا داعي لإقحام الشعوب المكافحة فيه ، خاصة وأن ما لدى الأصدقاء الجدد من تكنولوجيا يكفيها لتجاوز التخلّف الطويل .

أما إذا أخذت الشعوب المناضلة « بأيديولوجية الأصدقاء » ، أعني بالاشتراكية ، أقصد الاشتراكية العلمية ، أي التطبيق الاشتراكي ، ولا داعي لاستخدام تعبير الماركسية اللينينية في البداية ، فإنها ستطلق إلى الأبد عصر التخلّف وتمضي على طريق الجنّة الموعودة لبناء المجتمع الشيوعي ، عفواً المجتمع الاشتراكي .

ويجب أن يتولى هذه الدعوة ، أو كبرها ، الزعماء المتحررون ورجال الفكر التقدميون لشرح الوضعية المنطقية والمادية الجدلية وديكتاتورية البروليتارية ، ومقاومة الانحراف والتيارات الغيبية في البنية الفوقية للمجتمع التي تستخدم الدين كأفيون للشعوب ، وكشف وتعرية القوى المضادة للثورة التي تستهدف إعادة تقوية البورجوازية للانقضاض على الطليعة

الثورية . . و . . . و . . . حشد هائل من المصطلحات التي يجب أن تحفظ عن ظهر قلب حتى لو لم تكن مفهومة .

هكذا يرى البعض ، وأظن أننا جميعاً قرأنا التعبيرات السالفة التي انبهرت بها بعض الزعامات حيناً من الزمن ، ثم كان منها من أدرك ، أحياناً بعد فوات الأوان ، وأحياناً بعد طول المعاناة أنهم لم يفعلوا شيئاً أكثر من استبدال سيد بسيد ، وأوثان بأصنام ، وكأننا ألقينا بأنفسنا من نار الاستعمار القديم إلى نير الاستعمار الجديد ، وانتقمنا من الغرب بالاندفاع إلى الشرق ، إلى المعسكر الشيوعي .

أما الزعماء الذين أدركوا ما جنوا على شعوبهم بعد فوات الأوان ، فقد صفّى اللاحق منهم السابق ، وأما الذين أدركوا ، بعد طول المعاناة ، خطر وسوء ما أقدموا عليه ، فمنهم من كابر وذهب يعلق الأزمات الخانقة والمشكلات التي وقعت فيها أوضاع بلاده على ما اشتهر في الفكر الاشتراكي باسم « أخطاء التطبيق » ، وهي علاّقة معروفة ، ولا بد لكي تكتسب هذه الأخطاء فضيلة خلقية ، من اختراع قرين لها هو أسلوب النقد الذاتي ، حتى يسهل ابتلاع أو امتصاص المأساة بعد أن جنت على قومها وعلى نفسها براقش .

ولا بد أن نعترف أن عدداً من القيادات أو الزعامات في بعض الدول الإسلامية خاضت التجربة ووعت خطرها

وتراجعت في الوقت المناسب. ولا بد أن نلحظ في الوقت نفسه أن زعامات أخرى لا تزال تصر على مواقفها بعد أن ربطت مصائرها برفض التراجعات مهما كان الثمن ، وحفاظاً على أوضاع تخشى زوالها .

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر ظلم الغرب واستعماره واستنزافه للموارد الغنية للعالم الإسلامي ، الغني والفقير على السواء ، والتي كان لها الفضل في بناء تطور الغرب وتقدمه ، ولكن هذه الحقيقة لا تبرر تكرار التجربة ، وبأيدينا هذه المرة ؛ لأن العقلاء لا يستبدلون استعماراً باستعمار ، ولا تبعية بتبعية ، ولا نظاماً ينهار بنظام آخر يتآكل ، والعقلاء يعون تماماً أن مصدر النظامين واحد ؛ فهما من نبت الحضارة الغربية بما خالط أساسها من وثنية .

وأنا شخصياً لا أهاجم أياً من النظامين لكن أقول ، بعقيدة المؤمن ، إن عندنا ما نستغني به عنهما ، وقد يكون لدى غيرنا العذر إن هم حاولوا الاقتباس أو الأخذ بمنهج الشرق أو الغرب ، وبايديولوجية هنا أو هناك ، ولكن الوضع يختلف تماماً بالنسبة للأمة الإسلامية .

إن أول فشل نحققه هو البدء بعزل الإسلام عن قيادة حركة الحياة في السياسة والحكم ، في المال والاقتصاد ، في الثروة والتنمية ، في الاجتماع والأخلاق ، في كل شيء

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] .

إننا في حلٍّ من التبرؤ من آثار الدين السلبية على حركة التقدم ، لأن هذه المقولة تصدق بالنسبة لممارسات المسيحية في أوروبا ، أما إذا كانت كلمة « الدين » تعني الإسلام فإن الوضع جد مختلف ، إن لم نقل إنه عكسي تماماً ؛ فقد كانت النهضة للأمة الإسلامية في ظل الدين وفي كتبه ورعايته ، وفي حضانته وبتشجيعه ، وكان الدين هو القوة الدافعة لأقوى عامل في صنع الحضارة وهو الإنسان ، لأنه كان العامل الأساسي في « التغيير » ، وعندما سيطرت « الفكرة » كان إنسانها هو البدوي البسيط ، ولم يكن لديه إمكان أو رصيد من الطاقات والموارد يمكن أن تقارن بأي مقياس بإمكان وموارد وطاقات الروم أو الفرس أعظم امبراطوريات العصر ، ولا أتكلم عن القوة العسكرية وإنما عن القوة الحضارية ، ولكن المعادلة الفذة كانت كامنة في القرآن ، كما شرح المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي عندما أكد على وعي الأمة في كل مراحل نهوضها بالمعادلة القرآنية في قوله تعالى : **﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾**[2] ، فالنفس موطن المعجزة ،

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .

وتغيير ما بها هو الشرط الجوهري لكل تحول اجتماعي رشيد ، والفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما يكون المؤمن بها متمسكاً بقيمتها الغيبية .

وإذا استأنسنا بالتاريخ شاهداً على صحة دور الإسلام عقيدة وشريعة في نهضتنا وسمو حضارتنا ، فلكي نؤكد أن الإسلام كنظام كامل للحياة جرّب ونجح ، ولا سبيل إلى النجاح من جديد وتجاوز التخلف بالعض على الشفاه أو التحسر على أيامه الخوالي وأمجاده العوالي ، ولا سبيل إلى ذلك أيضاً «بتبعيضه» ، فهو كلٌّ لا يتجزأ ، وليس علاقة بين إنسان وربه ، ثم ما لقيصر لقيصر . . . ولكنه دين لا يفرّق بين الصلاة والزكاة ، أي لا يفرّق بين قمة الصلة الخالصة بين العبد وربه وبين أعظم صور التراحم والتكافل الاجتماعي والاقتصادي .

وعندما ننسلخ من الإسلام ونبحث عن حلول مشكلاتنا خارجه في الشرق أو الغرب ، فإننا نفقد احترامنا لأنفسنا ونستجلب ازدراء الغير لنا إلا إذا صدقنا التهاني الحارة التي وجهتها أوروبا إلى تيمورلنك عندما هزم السلطان بايزيد وأسره ، وكانت القسطنطينية قد أوشكت أن تركع بين يديه .

إننا في حاجة إلى العودة لمنابع الإسلام الأصيلة ننهل منها ونجعل الإسلام يحكم سلوك حياتنا وهي شرعتنا ومنهاجنا

ونظام حياتنا الذي نسير على هدي مبادئه وأحكامه .

وليكن إيماننا واضحاً بل وصارماً ، واعتزازنا عميقاً بالانتماء إليه والاستمساك بمفاهيمه ، لا نوطنها لمصطلحات في الشرق أو الغرب بدعوى العصرية أو مجاراة العصر .

إننا إذا أعلنا أننا ندين بالشورى الديمقراطية في نظام الاسلام السياسي فسرعان ما تقذف في وجوهنا كلمة لتمييع المصطلح أو تشويه المضمون .

الشورى هي الشورى وليست في حاجة إلى وصف عصري ، أما الديمقراطية فمنها الليبرالية والنيابية والاشتراكية والاجتماعية والمسيحية والغربية ، فالموصوف واحد والصفات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية أو جغرافية أو حتى عضوية حين ظهرت لها أنياب أشرس من الديكتاتورية .

والديمقراطية الصحيحة ، كما يزعم كل واصف ، هي التي يتكلم الإسلام عنها ولا ديمقراطية سواها ، هذا بالإضافة إلى التصحيح وتصحيح التصحيح ؛ فللديمقراطية أزمة ومحنة ، تدرس لطلاب الفقه القانوني الدستوري ، وهناك أزمة الخروج من المحنة ، أو محنة الخروج من الأزمة ، أعني من الديمقراطية ذاتها . . . وهكذا .

هذا على جانب مصطلح سياسي ، فما بالك لو دخلنا إلى النظم الاقتصادية ومدارسها ؟ ! أليس قد أعفانا

الله بالإسلام من ذلك كله ؟

قد يقول قائل : ولكن في الإسلام كذك اختلافات ، والقول صحيح ، اذا كان المقصود هو الاختلاف في الفروع وفهمها والاجتهاد بشأنها ، ولكن الأصول لا خلاف عليها .

وليس معنى ذلك أن يسخَّر الإسلام لخدمة أهداف سياسية ، ولا أن يوظفه البعض لخدمة أغراض أو أطماع أو سياسات بعينها ، وإنما ينبغي أن نوظف نحن أنفسنا في طاعة الإسلام ومن خلال مبادئه الثابتة ، ومن خلال ما تتسع له قواعده الكلية من اجتهادات في الرأي ، إن ذلك في حد ذاته أحد مصادر الثراء للعطاء الإسلامي .

ولنع حقيقة هامة وهي أنه ليس في الدين متحدث رسمي بإسم الإسلام غير القرآن وصحيح السنّة ، ولا هيمنة لأحد عليه .

فلتكن عودتنا إذن إلى الإسلام من منابعه الصافية إلى مدرسة النبوة ، إلى مبادئه السامية . وليكن هو الخيار لشعوبنا ، والخيار لقادتنا ومفكرينا على السواء . ولنترك أنظمة جربت وفشلت إلى نظام وضعه من أعرف بخلقه ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[1] .

---

(١) سورة الملك ، الأية : ١٤ .

وكما أن للحكومات الإسلامية دوراً في هذا الاختيار ، فإن للشعوب دوراً ليس أقل أهمية لأن الحكومات تتغير تبعاً للشعوب ، تسيّرها بها في آن واحد ، وليس لأحد عذر ، ولن يحمل كبير أو زعيم أو مفكر أو حتى الشيطان وزر غيره .

وصدق الله العظيم اذ قال : في محكم كتابه : ﴿ **وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص * وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[1] .

وأسأل الله القدير أن يبصر كل فرد بعيوبه ليقلع عنها ويكون عبداً لله بكل معنى العبودية ، ويعمل بما نزل به القرآن وكما جاء به سيد البشر صلّى الله عليه وسلم ، وحينئذ سنكون سادة العالم بحول الله وقوته ، ونكون في مأمن من شياطين الإنس والجن .

---

(١) سورة ابراهيم ، الأيتان ٢١ و ٢٢ .

الإعلام أو «الحائط المائي»

يبدو والله أعلم أن «الإعلام العربي» قد أصبح «الحائط المائي» كما يقولون، فلا يكاد يأتي ذكر الإعلام العربي في صحيفة أو مجلة في تناول عابر أو مقالات أو دراسات تتسم أو ترتسم بالطابع العلمي أو المتخصص، حول أي موضوع، إلا ويحظى الإعلام العربي بقائمة طويلة من النعوت أو فلنقل من المصطلحات، مثل أزمة الإعلام العربي، فشل الإعلام العربي، غياب الإعلام العربي والحبل على الجرار، كما يقولون في لبنان، وكما يحظى الإعلام العربي بقائمة أخرى من الصفات مثل الكذب، التعتيم، التضليل، شراء الذمم، الإعلام المفرّق والمشتت، إعلام النكسة، ويتناولون الصحافة بدرجاتها كالسوداء والصفراء والحمراء، وغير ذلك.

فإذا وقعت كارثة، أو حتى أزمة على المستوى الوطني أو القومي، تبارت الآراء تتصدى للبحث والغوص في أسبابها ودوافعها وعواملها في محاولة للتحليل الموضوعي جداً، وهناك دائماً نصيب محجوز «للإعلام» كسبب رئيسي

وجوهري، ولا يأتي هذا الحكم عشوائياً، بل تدعمه الحجج والبراهين ونتائج التحليل الموضوعي جداً، وكذلك الأمر إذا وقعت فضيحة خلقية أو مأساة اجتماعية، هناك دائماً نصيب محجوز أيضاً للإعلام العربي، وهكذا في شؤون الفرد والأسرة وقضايا المجتمع وأمور السياسة كما في مسائل الحكم والإدارة وكما في العلاقات، أو بالأحرى سوء العلاقات بين الحكومات. وهناك دائماً ذلك الدور الرائد والمكان البارز المحجوز للإعلام، وحتى قضايا الرشوة وفساد الذمم التي تؤثر على مصالح العباد والبلاد، فإن اهتمام الإعلام بها لا يفسر على أنه انسجام مع وظيفة الإعلام في الكشف والتنبيه أو الردع والتوجيه والترشيد بقدر ما يوصف بأنه ترويج وتشجيع على المزيد من الفساد والخراب..

فالإعلام دائماً «مدان»، هو الفاعل الرئيسي أحياناً، وهو المحرض أحياناً أخرى، وهو ربما الشريك «في الجريمة بالترك» في أهون الأحيان. فالإعلام عامة، باختصار، هو جماع لكل هذه النواقص في كل حياتنا وواقعنا.

ولا يمكن أن يُستدعى الإعلام العربي للشهادة في كل قضية، أياً كانت، ولا حتى لمجرد الدفاع، لأنه من المتوقع أن يقسم بالله العظيم أنه بريء، ولأنه في الواقع «شاهد ما شافش حاجة».

وعلى الرغم من أن أحداً لا ينكر أن للإعلام دوراً ثنائياً وحساساً في الأمور الفردية ، وفي أمور المجتمع ، سواء في التربية والسلوك أو في السياسة والاقتصاد أو التخطيط ، في الداخل والخارج ، إلا أنه مما لا ريب فيه كذلك أن الإعلام هو انعكاس لواقع الأمة ومرآة لها ، فإن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فإذا كان الواقع العربي يعاني من الصراع والتمزق ، والتشتت والفرقة والضياع ، وإذا كان الواقع العربي يعاني من الانهيار الأخلاقي إلا من رحم ربي ، وإذا كان يعاني من التلوث الخلقي ، ومن ضياع القيم .

إذا كان هذا واقع أمتنا العربية ، وإذا كانت هذه صورة عابرة فقط غير متعمقة ، وغير فاضحة للواقع العربي ، أو بعض ما تشهده ساحته ، كيف تريدون إذن من الإعلام العربي أن يكون صادقاً وأنتم تكذبون ؟

أن يكون نظيفاً ، وأنتم ملوثون ؟
أن يجمع وأنتم تشتتون ؟
أن يوحّد وأنتم تفرّقون ؟
أن يقول الحقيقة ، وأنتم تثرثرون ؟
أن يثبت ، وأنتم تهرولون ؟
أن يحارب وأنتم تستسلمون ؟

ربِّ آغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، ربِّ ألطف بقومي

وقد أصبحوا من كتابك يختصرون وعن نبيك معرضون ، وأنت ، أنت أعلم أي منقلب سينقلبون ، وقد لا يصبح الجناة وحدهم بالمصيبة مصابين ، إنه واقع مؤلم حقاً ؛ وقد حدث هذا كنتيجة حتمية لجهلنا المفرط بكل حقائق الدنيا ، وتفريطنا الكبير وغفلتنا وبعدنا عن قيمنا ومبادئنا .

وأحسب أن رجال الإعلام لا يمكن أن يدّعوا عدم مسؤوليتهم عن هذا ، وكلنا جميعاً شركاء فيما حدث ، ولا يمكن أن يصلح الوضع بمجرد إلقاء المسؤولية على الإعلام ، فهذا هو عين الهروب من المسؤولية ، ولكنه يبدأ بإدراك الواقع والتحسب لأبعاد المسؤولية ، وتجنب عبادة المادة ، وترك الأرباب المتفرقين إلى رب واحد هو الرزاق ذي القوة المتين ، وعلينا أن نهتم بالجوهر وليس بالقشور وأن نسعى لتغيير ما بأنفسنا لعل الله أن يغير ما بنا ، وما نحن فيه من حال لأحسن حال .

لقد قتلنا من أبنائنا وبأيدينا ما لم يقتله أعداؤنا ،وشردنا من أبنائنا ما لم يشرده أعداؤنا،وطعنا في ديننا بما لم يطعنه فيه أعداؤنا ، واغتلنا سمعتنا بأيدينا ، وبذّرنا ثرواتنا بأيدينا ، وضحكنا على أنفسنا ، وأضحكنا العالم من حولنا علينا وصفق الناس من حولنا ، ولكن ليت شعري !! يصفقون لنا أم علينا ؟ وحسبي الله ونعم الوكيل ، أن أصبحنا نعصى الله بنعمته علينا . اللهم ! مغفرتك ورحمتك أوسع من ذنوبنا .

أفبعد هذا ، أنتم للاعلام متهمون ؟ ؟ أم أنكم ستعقلون وتدركون أبعاد ما نحن فيه من بلاء ؟ ولن يرفع ذلك عنا إلا أن نعود إلى قول الله عز وجل : ﴿ **تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[1] .

والطريق واضح واضح ، اصدقوا حتى يصدقوا ، واثبتوا كي يثبتوا ، وأصلحوهم إذا انحرفوا ، ولكن إذا انحرفتم فمن يصلحكم غير الله . فاللهم اشهد والطف ، وأنت الهادي إلى سواء السبيل .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

مسؤولية الكلمة

يتجنَّب كثير من العقلاء أمر الكتابة والنشر إلاَّ إذا كان لديهم بالفعل ما يستحق أن يُكتب ، ويكرهون أن يثقلوا على الناس ، ولكن فئة أخرى ، أكثر عقلاً ، يتجنبون مجال النقد لأنه مسؤولية وبصيرة وإبداع ، يمتزج فيه العقل بالذوق والحس والأمانة والإبداع والتجربة ، وتعتبر فيه القدرة على التحليل والتعمّق شيئاً أساسياً .

وفرق كبير بين الكتابة والنقد ، وسوف أعمد إلى مناقشة هذا الموضوع بشيء من التفصيل ، غير أني أود القول أولاً بأن التجريح والتشهير والاتهام والتجنّي ، كل هذا ليس نقداً بل هو خروج عن أمانة الكلمة وتنكّر لشرف الحوار .

ورحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم ، وصلَّى الله عليك يا رسول الله تعلّمنا وتحذّرنا من أن نكبّ في النار على مناخرنا بسبب حصاد ألسنتنا ومنها أقلامنا .

ومع أن الكتابة أمانة ، إلاَّ أنها أمر تجوز فيه الهواية . أما

النقد فلا ، بمعناه الفني الدقيق ، لأنه أمر لا تجوز فيه الهواية ولا تجاز . فلأن تكون كاتباً هاوياً أو ـ على الأقل ـ غير محترف فهذا حق من حقوقك لا ينازعك فيه أو عليه أحد ، لأنك إنَّما تكتب بدافع من رغبة في أعماقك ، لتسطّر على الورق ما يعنّ لـك من أفكار ، شعـراً أو نثراً ، دراسـة أو مقـالـة ، قصـة أو رواية .

وأنت ـ في جميـع الأحوال ـ مسؤول عمَّـا كتبت ، ومن حق القراء عليك أن يبدوا آراءهم فيه رضىً أو سواه ، وعليك أن تتقبّل هذه الآراء بصدر رحب ، لأنها إنَّما تمثل ردود الفعل الطبيعية لمن كتبت لهم .

والكاتب ، غير المحترف ، يختلف عمَّن اتَّخذ الكتـابة مهنـة أسـاسيـة لأن الكتـابـة كمهنـة تتميـز بـ « الصنعـة » و « الحرفية » و « القـواعد » التي يُحـاسَب الكاتب المحتـرف عليها أدقّ حساب ، ولا يجـوز له أن يخـرج عن حدودهـا إلاَّ ضمن إطار الأسلوب الخاص الذي اتَّخذه لنفسه .

والكتابة مسؤولية وأمانة ، ولعلَّ قـاعدة التـأليف المهمة أصدق ما يجب أن يلتزم به الكاتب ، أي كاتب ، عندما يريد أن يؤلّف ، أو يخـرج على النـاس بمقـال أو بحث ، حيث أن لا يخرج المؤلّف عن أحد الأقسام السبعة التالية :

١ ـ إمَّا أن يؤلّف من شيء لم يُسَبق إليه ، يخترعه .

٢ ـ أو شيء ناقص يتممه .

٣ ـ أو شيء مستغلَق يشرحه .

٤ ـ أو شيء طويل يختصره ، دون أن يخلّ بشيء من معانيه .

٥ ـ أو شيء يرتبه .

٦ ـ أو شيء أخطأ فيه مصنّفه يبيّنه .

٧ ـ أو شيء مفرق يجمعه[1] .

أما بالنسبـة للنقد الـذي هو هبـة وخبرة ودراسـة و . . . أيضاً فالأمر مختلف كما ذكرت .

فإمَّا أن تكون ناقداً حقيقياً أو لا تكون ، ولا يجوز لك أن تتصدَّى للنقد بعد أن تصدر نقدك بقول تعترف فيه بأنك لست ناقداً ، أو أنك ناقد هاو ولست محترفاً ، لأن معنى ذلـك أنك لست نـاقداً متخصصـاً ، وفي النقـد يُعتبـر التخصّص شـرطـاً أساسياً لا يمكن التغـاضي عنه ، ولا التسـاهل فيـه ، ومجرَّد اعترافات النـاقد بـأنه ليس متخصصـاً يفرغ نقـده ـ مهما كـان قيماً ـ من مضمونه الفكري ويهبط إلى مستوى القارىء العادي الـذي يبـدي آراءه بـدافـع أحـاسيسـه الخـاصـة ، ومـزاجـه الشخصي ، فتكـون تلك الآراء ، مهمـا نضجت مختلفـة عن « النقـد » ، فهي وكـاتبهـا ، لا يصنفـان في عـداد العـطاء النقدي .

---

(١) شمس الدين البابلي من علماء القرن السابع عشر الميلادي .

ولست أدري لِمَ يعتقد بعض الذين يتصدون للنقد عندنا أن النقد يجب أن يكون قدحاً وتجريحاً وتجاهلاً للإيجابيات ، وبحثاً عن النقائص والمعايب والهفوات ، ومطالبة لصاحب الانتاج الذي ينقدونه أن يسير على هواهم الخاص ، ومزاجهم الذاتي ، وإلاّ فإن عمله يعتبر ـ في نظرهم ـ فاشلاً وناقصاً . . . و . . . وحتى غدا النقد عندنا أمراً يغلب عليه التعميم والرأي الشخصي مع افتقاره إلى الموضوعية ، وهذا أمر مؤسف ؛ لأننا في أمسّ الحاجة إلى النقد العلمي والموضوعي ، ولكن الناقد عندما يعمم ويجنح إلى الرأي الشخصي وعدم الموضوعية ، فإنه يخرج النقد عن إطار الفائدة المرجوّة منه ، وكلما اتّجه الناقد إلى العموميات وأسلوب التعميم أدركنا أنه يراوح في مكانه ولا فائدة ترجىٰ من عمله ، فهو مفلس ليس لديه ما يقوله . ويؤلمني جداً أن يتحوّل النقد عند البعض إلى جدل صاخب ومعارك شخصية ، لا تسمو بالناقد ولا بنقده ، وينطبق هذا على أولئك الذين يتصدّون لما يوجّه إليهم من نقد بانفعال يفقدهم القدرة على الرد الموضوعي ، فيخرجون عن دائرة النقاش الموضوعي والحوار البناء إلى الجدل العقيم ، وربما دون ذلك ، فيؤدّون إلى سقوط أعمالهم الأصلية ، وقد تحبط دون شعور منهم . فالقارىء ناقد ومتابع للأديب الذي يعشق أدبه ، ويكره أن يكتشف أن سماع المعيدي خير من رؤيته ، والقارىء يتألّم لسقوط المفكر والأديب ، خصوصاً عندما يتعلّق

به ويتابع أعماله ويكوّن له صورة رفيعة في خياله ولهذا فإن سقوطه يكون مؤلماً ومدوياً .

ولست أعيب على أي ناقد أن يبدي رأياً شخصياً بصورة مطلقة ، ولكن الذي أعيبه هو ذلك الرأي الفردي الذي لا يعتمد على تحليل أو يستند على دليل ، ويفتقر إلى التعليل المنطقي والموضوعي ويتجه إلى تعميم ، وليس هناك ـ في رأيي ـ أخطر من ضحالة ثقافة الناقد وفساد ذوقه وعدم موضوعيته في مثال هذا الإطار .

من الشروط التي يتحتم أن تتحقق في الناقد « الذوق » لأنه الأساس في كل حكم والفيصل في كل نقد ، وأداة الذوق هي عواطفنا ، أما أداة الفهم فهي عقولنا وأفكارنا فنحن نفهم النص بعقولنا ونتذوقه بشعورنا[1] .

ولعلَّ الأستاذ أحمد حسن الزيّات أوضحَ أهمية الذوق في النقد ، حيث حدَّد له مصدرين يستمد منهما الناقد الحكم

---

(١) دراسات في النقد الأدبي ـ الدكتور كامل السوافيري .
دراسات في نقد الأدب العربي ـ الدكتور بدوي طبانة .
في أصول الأدب ـ أحمد حسن الزيات .
في الأدب والنقد ـ الدكتور محمد مندور .
البصيرة النقدية ـ دكتور عبد العزيز الدسوقي .
مجلة الثقافة ، العدد « ١٠١ » ، فبراير ١٩٨٢م .

في جميع قضاياه ، وأحدهما العقل المتزن ، ولذلك فهو يرى أن من وُهِب ثقوب الذهن يكون في أمان من الزيغ ، والمصدر الثاني عنده هو العاطفة ، وهي الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس ، وهنا مجال الاختلاف .

فكيف يكون الأمر عندما يخلو النقد من العقل والعاطفة ويتجه إلى جدل وضجيج لا ذوق فيه ولا حس ولا عاطفة ، ناهيك عن رأي أو فكرة تحترم ؟ فهو إذاً ليس نقداً ، لأن النقد قيمة فنية كما اتفقنا ، وهو قيمة عالية لا يحصل عليها ولا يصل إليها إلاَّ قلائل ، وهو محصلة رصيد ضخم من العلم والخبرة والمعرفة والمطالعة والتخصّص ، وهو كذلك قيمة أخلاقية تضع الناقد كالقاضي أمام ضميره ، فلا يسمح لأهوائه الشخصية ولا لمزاجه الخاص ولا لعواطفه العادية أن تأخذه في هذا الاتجاه أو ذاك ، بل يتّخذ من الموضوعية المجردة مقياساً كمثل ميزان الذهب يزن بدقة ، ويقوم الأعمال بأمانة ، ويبدي الرأي ـ من ثمَّ ـ بصدق .

وعلى الناقد ـ في رأيي ـ ألا يكتفي بالسلبيات وحدها ، بل عليه أن يأخذ العمل الذي ينقده ككل ، ثم يتولى تشريحه لا تجريحه « . . . » بطريقة فنية ؛ فيذكر السلبيات ويعلّل وجهة نظره تجاهها ، ويذكر الإيجابيات ويعرّض رأيه فيها ، ثم ـ وهذا هو المهم ـ يقترح منهاجاً يبيّن فيه بوضوح أنه رأيه

الخاص ، المجرّد من كل هوىً ، وبذلك يستفيد صاحب العمل الفني من هذا النقد في نتاجه المقبل ، كما يستفيد القارىء بتكوين ملكة النقد الفني السليم لديه .

وأحسب أن من الضروري أن أشير إلى أن مقاييس النقد تختلف ـ بطبيعة الحال ـ من بلدٍ لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، وأن الناقد يجب أن يأخذ هذا الاختلاف بعين الاعتبار في نقده ، فمن الثابت أن وجهات النظر النقدية في أوروبا ، تختلف عنها في شرقنا العربي ، وأن متطلبات العمل الفني ومواصفاته عندنا ـ في البلاد العربية ـ هي غيرها ، دون شك ، في بلاد أخرى .

« والكاتب قد يكون أديباً عالماً بالنحو ، أو متمكِّناً في علوم الصرف مثلاً أو مؤرّخاً ، ولكن الناقد مطالب بما هو أكثر من ذلك ، وقد يكون جميع هؤلاء ، بالإضافة إلى الذوق والحس الفني وسعة المعرفة بصورة عامة ، ولا بد أن يكون ذا معرفة واسعة وعقلاً بصيراً يوازي بين قول وقول ، وألزم شيء له هو الذوق المرهف والملكة الناضجة والقلب الحساس »[1] .

خلاصة القول : أن النقد مسؤولية جسيمة لا يجوز لمن

---

(١) دراسات في نقد الأدب ـ الدكتور بدوي طبانة .

لا يقـدر على حملها أن يتصـدَّى لها ، وأن الكتـابة مسؤوليـة تختلف في مضمونها عن مسؤولية النقد .

فالكاتب ـ محترفاً أو هاوياً ـ مسؤول أمام قرائه .

ولكن الناقد ـ الناقد المتخصّص ـ مسؤول أمام ضميره .

ومن العقلاء من يقول : ربّ علّمنـا الحق حقاً وارزقنـا اتّباعه ، وعلّمنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، وعلّمنا أن نقول الحق في وجـوه الأقويـاء ، ولا نقول البـاطـل لنكسب تصفيق الضعفاء .

تنابلة القرن العشرين

«١»

ترى ، بماذا يمكن أن نجيب الأجيال القادمة لو سـألتنا عن أسبـاب مـا نحن فيـه من تـدهـور وانحـطاط وهـوان على النـاس ؟ ولماذا وصلنـا إلى ما وصلنـا إليه من ضيـاع وشتات وفرقة ؟! هل من قلّة ؟ وهل من فقر ؟

أم بسبب افتقارنا إلى نظام يحكم حياتنا ؟ أم افتقارنا إلى الحيـوية والنشـاط وخلودنـا إلى الـراحـة و « التنبلة » والـدعـة والكسل ؟

أما الأولى فلا ؛ فقـد زادَ العدد عن ثمـانمائـة مليون ، والحبل على الجرار ، كما يقول المثل العاميّ اللبناني .

وأمـا الثانيـة فـلا ، فقـد أغنـانـا الله بثـروات وخيـرات متنوعة ؛ فالمساحات الزراعية تملأ عالمنا الإسلامي من أقصاه إلى أدناه ، ناهيـك عن الثروات الـطبيعية الأخـرى ، وبصورة خاصة ركازات المعادن ومصادر الطاقة .

وأما النظام ، فلا ، فقد أكرمنا الله بالإسلام حيث بعث

لنا خير رسله وخاتمهم وخصّنا بالقرآن الكريم ، وتكفّل بحفظه ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[1] ، تنزيل من لدنّ حكيم عليم .

ولكنه التفريط ، حتى أصبحنا أحوج ما نكون إلى من يردّنا إلى ديننا ، ويرد علينا إيماننا ، ويعيد لنا ثقتنا بأنفسنا . ولعلّنا أحوج ما نكون للعودة إلى الماضي المجيد نستمد منه القوة والعزيمة والثقة في المستقبل ، ذلك الماضي الذي تميّز بالعزة والكرامة والثقة ، يوم كان الإسلام يقود حركة الحياة ، وذلك لأنه نظام كامل للحياة لا يقبل بالتبعية ، ويرفض حكم الجاهلية ، حتى وإن أحاطته مظاهر التديّن ، فهو كلٌّ لا يتجزأ ، وذلك لأن الجاهلية « ليست فترة من الزمن محددة ولكنها طابع روحي وعقلي معين ؛ طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية كما أرادها الله ، وتحلّ محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة . . » ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾[2] .

نعم هو حكم الجاهلية ، حيث تحكمت الشهوات ، واحتُكِم إلى الشهوات ، وهي جاهلية من نوع جديد ، حيث يسميها الأستاذ قطب جاهلية القرن العشرين ، الشرك فيها ليس

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .

عبادة أصنام من حجر أو شجر ، وليس هو شرك الجهمية والمعطّلة ، ولكنه شرك من نوع جديد ؛ حيث أصبح أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية تحكم بغير ما أنزل الله ، والناس فيه تعصى الله على بصيرة ، وتبيع ، في سهولة ويسر ، دينها بدنياها ، فهي « تجهل فوق جهل الجاهلين » .

والحقيقة أن انحطاط المسلمين وتدهورهم لم تقتصر خسارته على الأمة الإسلامية وحدها ، بل كان خسارة للإنسانية أجمع ؛ وذلك لأنه ضياع رسالة جاءت للبشرية جمعاء ، وانحطاط أمة أخذت بيد الإنسانية من الظلمات إلى النور « لم يكن انحطاط المسلمين أوّلاً وذلّهم وانعزالهم عن قيادة الأمم وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً حادثاً من نوع ما وقع وتكرَّر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم وانقراض الحكومات والدول وانكسار الملوك والفاتحين ، ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له في التاريخ » .

وسبب هول هذه الحادثة وعمق المأساة أنها لا تخص العرب أو المسلمين وحدهم ، ولكنها مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس ولا أعمّ منها .

ولو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيته وانكشفَ عنه غطاء العصبية لاتَّخذ هذا اليوم يوم عزاء ورثاء ونياحة وبكاء وتبادلت شعوب العالم وأممه

التعازي ولبست ثوب الحداد .

إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر ، وفتحت عدداً من البلاد والأقاليم ، واستعبدت طوائف من البشر ، ونعمت وترفهت على حساب الضعفاء والمحكومين ، وإن الإنسانية لا تشقى بتحوّل الحكم والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى آخر أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها في الجور والاستبداد .

ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم ـ وهم حملة رسالة الأنبياء ، وهم للعالم البشري كالعافية للجسم الإنساني ـ انحطاط شعب أو عنصر أو قومية فما أهون خطبه وما أخفّ دفعه ، ولكنه انحطاط رسالة هي للمجتمع البشري كالروح وانهيار دعامة قامَ عليها نظام الدين والدنيا[1] .

هذه إذن حقيقة لا جدال فيها ، إننا عندما تدهورنا وانحططنا وتكالبت علينا الأمم كتكالب الأكلة حول القصعة ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » قالوا : أمن قلّة يومئذ بنا يا رسول الله ؟ قال : « لا .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي .

أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، تُنزع المهابة من قلوب عدوكم ويُقذف في قلوبكم الوهن » قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » . (أو كما قال) .

هي حقيقة مؤلمة أن خسارتنا لم تكن عابرة ، ولم تكن كأي حادثة عبر التاريخ ، ويوم أن بدّلنا نعمة الله ورضينا بالذي هو أدنى ، وتركنا الذي هو خير ، عندها بدأت الكارثة ، وإلا لماذا عزلنا الإسلام عن حركة الحياة ؟ ولماذا احتكمنا إلى غير ما أنزل الله ؟

وهو سبحانه يحذرنا :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[1] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[2] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[3] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٥ .

ظلمنا أنفسنا ، وظلمنا العالم أجمع ، وضِعنا وضيّعنا العالم من حولنا .

وذلك لأننا آثرنا الخلود إلى الراحة ، وقبلنا الأوضاع الفاسدة ، وظَلَمَ الإنسان أخاه الإنسان ، ولم نعد نأمر بمعروف أو ننهى عن منكر ، وأصبح الناس فينا يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ورضينا بحكم طبقة الرهبان . والأحبار ، حذّرنا الإسلام منها : لا رهبانية في الإسلام .

لأن الإسلام دين الفطرة ، وقد جاء : بعد أن « طمست الفطرة ، واختفى وهجها تحت ركام من الكهانات والخرافات التي نشرتها الجاهليات السائدة في العالم » .

فلماذا عدنا إلى تحكيم أمثال هؤلاء المولعين بالتحريم ، دون سند من الكتاب أو السنة ، وهي ظاهرة ملموسة في التديّن الفاسد المولع بالتحريم ، الراغب في التضييق على الناس في دائرة المباحات ، « وهذا ظاهر في الأديان الباطلة والمنحرفة ، وقد يظهر على ألسنة بعض المسلمين الجهلة ، فهم يشددون على الناس ويقاومون منهج الفطرة »[1] .

---

(١) الإسلام دين الفطرة ـ محمد الغزالي / الشرق الأوسط ، ٢٩ / ٥ / ١٩٨١م .

وهذه قضية هامة لا بد من الاهتمام بها ، لأن أمثال هؤلاء تكون مواعظهم منفرة ، وأقوالهم مزورة ، وخطرهم على الدين شديداً ؛ لأنهم بعيدون عن الفطرة ، ولا يثق الانسان في حكمهم ، ولا ترتاح النفس إلى وعظهم ، يستبيحون الطعن في الناس ، ويتتبعون عيوبهم ، بل يلتمسونها ، ويحرصون على الصعود ولو على سمعة الناس ، أو حتى رقاب الأبرياء منهم ، يحتمون خلف الدين ، ويقذفون الناس بالباطل ، فأي قدوة ترتجى منهم ، وهم يحيطون أنفسهم بهالات من المظاهر والطقوس ، ويعقدون الأمور على الناس فتخافهم الناس وتخشاهم كخشية الله ، بل ربما أشدّ خشية ، والله أحق أن تخشاه ، فهم أقرب إلى الكهانة ؛ لأنهم يحلّلون ما حرّم الله ، أو يحلّون ما حرّمه ، وفق أهوائهم ويأكلون أموال الناس ، أو أموال بيت مال المسلمين بالباطل تحت ستار من الدين .

﴿ إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ﴾[1] .

ولهذا يُعتبر خطر هؤلاء كبيراً ، وذلك لأن الناشئة تتلقى عنهم ، وعندما تُصدم فيهم ، أو تَتكشف لها أحوالهم تكون الصدمة كبيرة والمصاب عظيماً ، لأنها تزعزع إيمانهم

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٤ .

وتشككهم في سلامة الدين ، وهذا هو مكمن الخطر ، وهـذه إحدى العلل التي أخذت بنا إلى الانحطاط .

وهنـاك حركـة أخرى ، وفئـات أخرى سعت إلى إبعـاد الدين عن حركة الحياة ، كما سعت إلى صرف الأمة الاسلامية عن فكـرهـا الإسـلامي وبصـورة خـاصـة في مجـال الشؤون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وهو أمر عجيب .

إذ كيف نبعد هذا الدين عن قيادتنا وهو القوة التي حققت المعجزة الحقيقية في حياتنا ، وصنعت الحضـارة التي غيّرت وجه الكون بأكمله حتى جعلتنا خير أمة أخرجت للناس ؟

« هذا الإسلام الذي دان لكلمته مئات الملايين بالحكمة والموعظة الحسنة وفتح مغاليق القلوب والعقول حتى كادت البشرية تستوي على النور والخير والحق لولا أن سبقت كلمـة ربك الخالدة الحاسمة ولا يزالـون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

هـذا الإسـلام لا يسمـح لـه من دون كـل التصـورات والأفكـار والمذاهب أن يعـود إلى قيادة الأمـة الإسـلاميـة من جديد ، إتفاق كامل على إبعاد الإسلام عن حركة الحياة .

ليكن البديل علمانياً ، أو ليكن يساراً معتدلاً ، أو ليكن

اشتراكية علمية ، أو ليكن قومية .

أو ليكن إقليمية ، أو ليكن خليطاً من هنا وهناك .

ليكن أي شيء أو ليكن لا شيء ، المهم أن لا يكـون الإسلام في الساحـة وأن لا يكون الإسـلام الحل الحضـاري الشامل »[1] .

ترى هل جرّب مستوردو الثورات ومحترفوها وفـلاسفتها ودعاتها في البلاد الإسلامية ، هل جرّبوا ثورة الإسلام ؟

---

(١) الإسلام أولاً ـ عبد الحليم عويس .

تنابلة القرن العشرين
«٢»

لماذا تكون كل ثورة تحدث خارج العالم الإسلامي جديرة بأن تُجرّب في دار الإسلام ، وتكون كل الثورات خيراً وبركة ما عدا ثورتنا نحن ثورة الإسلام ؟

لا ثورة حقيقية في أرض الإسلام إلا ثورة المسلم على ما يقف بينه وبين عقيدته .

إنها تتلخص في النهاية بسؤال واحد .

هل لنا مقومات نهضة خاصة بنا ؟ ، وما هي هذه المقومات للحياة الإسلامية التي نريد أن نحياها ؟ ، وكيف السبيل لبناء هذه المقومات والأخذ بها ؟

وما أكثر ما تحدثنا عن الإسلام ، وما أقل ما أخذنا به ، وما أكثر ما ردّدنا بألسنتنا وأقلامنا على المنابر وفي المؤتمرات أن الإسلام كفيل بحلّ كل مشاكلنا ، وما أقلّ ما استعرضنا هذه المشاكل وحلولها الإسلامية ، وما أكثر ما ذكرنا :

« النظام الاقتصادي الإسلامي » .

« النظام التربوي الإسلامي » .

« النظام الاجتماعي الإسلامي » .

ثم لم نشرح لأنفسنا ولا لغيرنا معنى هذه الكلمات المليئة بالمحتوى .

ولكن الجهود المبذولة في شتى الميادين لن تكون مثمرة ما لم تلتق جهود الحكام المسؤولين ، وجهود العلماء والمثقفين ، وجهود المؤمنين الغيورين تحت راية « الإخلاص للقرآن الكريم »[1] .

وذلك لأن الأمر المهم في النهاية أن نعيش حياة إسلامية كاملة نستفيد فيها من نتاج الفكر الإسلامي ونترجمه إلى أسلوب حياة ، وبذلك نقف في وجه هذا الانحطاط والضياع الذي يقودنا إليه أعداء الأمة الإسلامية ، في الداخل والخارج ، ويريدون منا أن نتخلى عن إسلامنا لكي ننهض ، فلم يألُ من اتبعهم إلا خبالاً .

أمر مؤسف حقاً أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأن ننساق إلى جاهلية حولت الدين عندنا إلى عصبية فضِعنا وأضعنا العالم معنا ، وخسرنا وخسر معنا ، وكما يقول معروف الرصافي :

---

(١) يوسف ايبش ـ عصر التحديات جريدة النهار ٢١/ ١١/ ١٩٧٩م .

إذا ما الجهل خيّم في بلاد
رأيت أُسُودَها مُسِخَتْ قرودا

والمشكلة أننا نظن أننا نتطور لمجرد أننا نسير إلى الأمام ، وكأن مجرد السير إلى الأمام هو تطور بصرف النظر عن معادلة التطور التي تحتم الجمع بين العقيدة والتاريخ والرؤية المستقبلية .

وما من عاقل ينكر أبعاد التحديات التي تواجهنا والمشاكل التي ورثناها ، والتي تستوجب حلولاً حاسمة وآراء واعية تتمشى مع روح العصر الذي نعيش فيه ، ولكن الحل الصحيح هو فهم عصري للإسلام وليس إسلاماً عصرياً ، فالإسلام واحد ، والكتاب واحد ، والرسول خاتم الأنبياء والمرسلين ، والله قد أكمل لنا الدين ، وبقي أن نحسن نحن فهم هذا الدين القيم ونحسن العمل به من غير إفراط ولا تفريط ، وهذه هي مسؤولية العلماء والمفكّرين ، الذين من واجبنا أن نجلهم ونحترمهم ، ونوفّر لهم الإمكانات ليعملوا وليأخذوا بيد الأمة إلى عبادة الله على بصيرة .

ومن الخطورة أن نستهين بهؤلاء العلماء أو أن نحقرهم ، أو نقلل من شأنهم أمام الناشئة والعامة على وجه الخصوص ، فذلك ما كان يهدف إليه أعداء أمتنا يوم قالوا :

« إن النضال ضد الدين لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل

الدين عن الدولة ، وبعد الحط من كرامة العلماء وإشاعة احتقارهم .

وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين ، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة في طريقنا »[1] .

ولكن المهم أن نفرّق بين العلماء وبين الدخلاء الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، والذين لا يزيدون الأمة إلا خبالاً ، وأن نحمي الشباب من أولئك المتعصبين ، المتنطعين الذين يحلو لهم التضييق على الأمة والتزمت مع الناس ، ومشادة الدين في كل شأن لأنهم ينفرون الناس بغلظتهم وبقسوتهم ، وعلينا أن نحمي المجتمع من أولئك الذين يشترون رضا الناس بغضب الله ، ويتملقون الحكام أو الدهماء .

ولا بدّ أن ندرك أهمية بناء شباب الأمة وتضييق الهوة بيننا وبينهم ، والتحدّث إليهم بلغة يفهمونها ، فمن الخطورة أن نكون نحن في وادٍ والشباب في وادٍ آخر ، وليس من المصلحة إثارة حفيظتهم وترك الشكوك والهواجس تعصف بهم ، كما أن من الواجب تعويدهم على احترام العمل ، فلا يظنون أن

---

(١) من بروتوكولات حكماء صهيون .

الفهلوة والشطارة و « الحربقة » هي أساس التطور فيعمدون إلى انتهازية مدمرة .

كما أن من الواجب أن نشعر الشباب أننا على استعداد لسماع آرائهم ، والتعرف على مشاكلهم ، بل ومشاركتهم في حلّها ، لأنهم في حاجة إلى من يستمع إليهم ، كما أن الواجب يحتم التحسّب لكل كلمة نقولها في حقهم ، فلا نرمي بالتهم جزافاً ، دون وعي ، وكلما خطب خطيب أو تحدّث مصلح بدأ بالهجوم على الشباب والسخرية منه أو الاعتماد على شرائح غير علمية في تصوير وضعه ، والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله صلّى الله عليه وسلم : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[1] .

أفلا يجدر بنا أن نكون أكثر ارتباطاً بهذا التوجيه الإلهي .

وهناك موضوع الأسرة ، وأهمية ترابطها لخلق جيل واعٍ مدرك لمسؤولياته تجاه دينه ، ووطنه وأمته ، واهتزاز الروابط الأسرية وتفككها له آثار سلبية خطيرة على المجتمع .

أضف إلى هذه قضية الأمية في الوطن الإسلامي ، وكيف أوضحت الأحصائيات أن غالبية الأمة الإسلامية تعاني

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

من أمية القراءة والكتابة ناهيك عن الأمية الثقافية ، وليس هذا مجال تحميل المسؤولية على أجهزة التربية ومناهج التعليم وقضايا التلقين ، أو حتى عدم تعاون الأمة الإسلامية فيما بينها في سبيل محو هذه الأمية ، أو على الأقل استشعار خطورتها .

وكان من الممكن الاستفادة من حافز الدين للقضاء على هذه الأمية ، فهو مؤثّر قوي وفعّال خصوصاً أنه أول ما دعا إلى العلم ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾[1] ، و ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

وكان من الممكن الاستفادة من الدين لضبط سلوك المجتمع وتوجيهه الوجهات الصحيحة ، لأنه « الوعاء » الذي يجمع كل القيم ، وتنبع منه كل المقوّمات الأساسية الأخرى للمجتمع كالانتماء للوطن والمجتمع والحب والعطاء وبذل الذات وتربية النفس والبدن واحترام الحرية والعدالة الاجتماعية والاقتصادية »[3] .

وهنا تبرز أهمية اختيار ما يُدرَّس ومن يُدرِّس لأبنائنا الدين ، لأن من واجب هؤلاء استيعاب المتغيرات الحديثة

---

(١) سورة العلق ، الآية ١ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٩ .

(٣) محمد رجب ـ ندوة مناقشة قضية الشباب .

والتحولات والطفرات التي تواجه المجتمع .

كما يجب علينا أن نحول بين تاريخنا وأولئك الذين يعمدون إلى تحقيره والاستهانة أو السخرية بأمجاد آبائنا وأجدادنا في وقت يعتزون فيه بتاريخ الأجانب والغرباء ، بل ويعمدون إلى زعزعة ثقتنا بأنفسنا ، ويدفعون ناشئة الأمة إلى التشكك في تاريخ أمتهم .

« إن التشكيك الدائم في مراحل نضالية وتاريخية ماضية كان السبب الرئيسي في فقدان الشباب لانتمائه »[1] .

« تزداد الأمة تصلباً وتماسكاً بقدر ما كان لها من مجد غابر تمت إليه بأنسابها ، فالأبطال المتقدمون من أفرادها ممن دوّخوا الممالك ومصروا الأمصار ووطئوا بسنابك الخيل عروش الملوك هم النواة التي تجتمع حولها مشاعر الأفراد وتتعاون بواسطتها عقولهم وتخضع لها إرادتهم ،وكذلك شأن من كان لها من العلماء المبرزين والمخترعين المتفوقين والفنانين العبقريين ، وسائر الرجال من أفرادها ممن تركوا وراءهم في المجتمع المادي والعقلي والروحي دوياً ، وأثاروا عاصفة من الدهشة والإعجاب ، وقد كان للخلفاء الراشدين في هذا المضمار ، ولمن اختاروا من أهل القيادة والزعامة ، من الأثر

(١) محمد رجب ـ ندوة مناقشة قضية الشباب .

في تكوين العرب خاصة والمسلمين عامة ما لا يتطلع الدهر إلى محوه » .

وبعد ،

فإنه لأمر مؤسف أن الأمة الإسلامية قد تفرّقت في كل شيء ، تفرقت كلمتها ، وتفرقت قوتها السياسية وتقطعت إلى أقاليم متنازعة وتوزّعتها أمم الأرض ، وحتى رابطة العالم الإسلامي ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي لا تلقيان من الدعم المعنوي قبل المادي ، من بعض الدول ، ما يمكّنهما من تشكيل رابطة قوية أو جامعة لها الكلمة الفصل ، وصار لكل إقليم ولي وسند ، مع أن الولاية واجبة لله وللرسول . . ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله** ﴾[1] ، و ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار** ﴾[2] .

وللأسف أن بعضنا قد مكّنهم من الدين يحرّفون فيه بأيدينا ، ومن مناهج التربية يشوّهونها ، وإذن فماذا ستكون الحجة ؟ ، وبماذا نجيب الأجيال القادمة إذا سألتنا عن أسباب هذا التدهور ، وعن مسببات هذا الانحطاط ؟

ترى ، هل يكفي أن نقول إننا ورثنا بعضها ، أو إننا كنا مغلوبين على أمرنا ؟

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٥ .

(٢) سورة هود ، الآية ١١٣ .

وإذا ما تساءلنا مرة أخرى عن السبب وعن العمل فسوف نجد في النهاية أن ضعف الرابطة بين العقيدة الإسلامية كنظام حياة وبين المسلم سواء كان فرداً أو مجموعة ، حاكماً أو محكوماً ، هو ما يجب التصدي له والعناية به بصرف النظر عن الأسباب استعماراً كانت استيطانياً أو فكرياً أو مجرد إقبال على الدنيا وتكالب عليها .

ولا شك أن التطور الحقيقي يبدأ عندما ينتفض المسلم ضد ضعف الرابطة بينه وبين عقيدته ، وعندها يبدأ العد التصاعدي .

على أني أرجو أن نوفق في الإجابة على الأسئلة المحتملة ، وأن يوفّقنا الله للثبات عند السؤال أمام الله قبل الناس .

فالله أحق أن نخشاه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ينظر بعض العقلاء باستغراب إلى إقبال بعض الناس على الدنيا بشراهة ، لا يفرّقون بين حلال أو حرام ، بعضهم يبيع دينه بدنياه ، وهو شر وجهالة ، ولكن البعض الآخر يبيع دينه بدنيا غيره حتى أصبح للرشوة والخيانة والسرقة مسميات مرادفة لها ما أنزل الله بها من سلطان .

والعجيب العجيب أن بعض هؤلاء عندما تحذّره يدافع في بلاهة بأنه إنّما يؤمن مستقبل أولاده (لك الويل ليتك لم تزني ولا تتصدّقي) .

وكيف غفل هؤلاء أن الله طيّب لا يقبل إلاّ الطيّب .

ليت شعري ! ألا يقرأ هؤلاء قول الله سبحانه وتعالىٰ وهو يحذّرهم من الحرام وينبّههم إلى أنهم إنّما يجنون على أبنائهم الضعفاء ﴿ **وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً * إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً**

وسيصلون سعيراً ﴾[1] .

فهم إذن يجنون على أبنائهم ولا يؤمنون مستقبلهم ؛ ذلك لأنهم يطعمونهم من الحرام بدلاً من الطيّبات ويتبعون خطوات الشيطان .

﴿ يا أيُها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إيّاه تعبدون ﴾[2] .

﴿ يا أيُها الناس كلوا ممَّا في الأرضِ حلالاً طيّباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين ﴾[3] .

﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيّباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إيّاه تعبدون ﴾[4] .

والعجيب أن هؤلاء الذين يستهترون بأكل الحرام يأكلونه ويطعمون أبناءهم وقد يتصدقون منه ولا يعلمون أن الصدقة من المال الحرام غير جائزة .

روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنه : تليت هذه الآية عند النبي صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ يا أيُها الناس كلوا ممَّا في الأرضِ حلالاً طيباً . . . ﴾ فقام

---

(١) سورة النساء ، الآيتان ٩ و ١٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٦٨ .
(٤) سورة النحل ، الآية ١١٤ .

سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة . فقال رسول الله : « يا سعد طيب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » . وهناك إضافة أخرى لهذا الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده إن العبد ليقذف باللقمة في جوفه فلا يتقبل منه عمل أربعين يوماً » .

« وأي عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

« من اشترى ثوباً بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم تقبل صلاته ما دام عليه منه شيء » .

« كل لحمٍ نبت من حرام فالنار أولىٰ به » .

« وروى البيهقي عن ابن عمر : الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالاً من حلال وأنفقه في حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالاً من غير حله وأنفقه في غير حقه أحلَّه الله دار الهوىٰ » .

هكذا تتوالىٰ الأحاديث النبوية التي امتلأت بها كتب الحديث (من صحيح ، أو حسن ، أو ضعيف) تحذر من خطورة المال الحرام .

وأن أول ما يُسأل عنه هذا العبد ماله من أين اكتسبه وأين أنفقه : « لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن أربع ، عن عمره

فيما أفناه ، وعن علمه ما فعل فيه ، عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » .

فكيف ستكون الإجابة ؟ وما هي الحجة لهؤلاء الرجال الذين أقبلوا على المال الحرام في شره لا يخافون الله ولا لومة لائم حتى وإن غفلت عنهم السلطة أو خدعوا السلطان فهل يستطيعون خداع الله سبحانه وتعالىٰ ؟! .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاَّ أنفسهم وما يشعرون ﴾[1] .

والمضحك أن بعضهم يسمّي هذه شبهات وهي حرام صريح لا مراء فيه ، وقد روي عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس فمن اتَّقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام » .

هذا عن الشبهات فكيف بالحرام البيّن ، بالرشوة الواضحة التي تنزل كقطع النار في جوف الإنسان من غير أن يشعر .

وسبحان الله كيف كان يحذرنا رسول الله صلَّى الله

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٩ .

عليه وسلَّم من المال الحرام ، وكيف كان صحابته الكرام يحرصون على تجنّب كل حرام أو شبهة من حرام ، فهذا الإمام مالك يروي عن زيد بن أبي مسلم قال : « شرب عمر بن الخطاب لبناً فأعجبه فسأل الذي سقاه من أين لك هذا ؟ فأخبره أنه ورد على ماء قد سمَّاه فإذا نعم من نعم الصدقة وهم يسقون فحلبوا لي من ألبانها فجعلته في سقائي فهو هذا ، فأدخل عمر يده فاستقاء . وهذا أبو بكر يفعل نفس الشيء ؛ فقد روىٰ البخاري عن عائشة قالت : « كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاءه يوماً بشيءٍ فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال : ما هو ؟ قال : كنت تكهنت بإنسان في الجاهلية فأعطوني إياه . فأدخل أبو بكر أصبعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، وقال : اللهمَّ إني أعتذر إليك ممَّا حملت العروق وخالط الأمعاء » .

وعفا الله عن رجال ينتسبون للعلم والعلماء بدأوا يتجرأون على الفتوىٰ يهرفون بما لا يعرفون ، يحللون ما حرَّم الله ، ويتفضفضون أمام العامة بشبهات ، ويعمدون إلى أقوال ضعيفة يستمدون منها الفتوى ، يقذفون بها في أوجه العامة الذين يتقاذفونها في غير وعي أو إدراك فيبوؤون بإثمهم وإثم من أفتوهم من غير علم أو بصيرة .

إن أحداً لا يمكن أن يمنع عالماً من العلماء أن يجتهد أو

يقيس أو يفسر ، ولكن لكل أمر من هذه الأمور أسسه الواضحة والبيّنة في الشريعة السمحة ، وقد تركنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المحجة البيضاء :

« تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالك » .

ولكن ما يؤلم حقاً هو تسرّع البعض في التصدّي للفتوى مع أنها مسؤولية عظيمة . من الخطورة أن يتحدّث العلماء أمام العامة والدهماء بأمور لها خصوصيتها ولها ظروفها أو بشبهات غير ثابتة ، وفرق كبير بين أن تفتي رجلاً أو امرأة في قضية خاصة تعرف ملابساتها وظروفها وبين أن تخرج إلى العامة بفتوى لها صفة العمومية فيقومون عليها دون وعي أو إدراك ، وهو أمر خطير ، ومسؤولية الفتوى مسؤولية كبيرة أمام الله سبحانه وتعالى ، ومن الواجب أن لا يتصدّى لها إلاّ من كان على علم وقدرة تؤهّله لمثل هذا .

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « لا ألفينَّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » . رواه أبو داود ورواه ابن ماجة والترمذي باختلاف يسير في اللفظ .

وعن ابن عمرو : « إن الله لا ينزع العلم بعد أن

أعطاهموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضِلّون ويضَلّون » .

ومن العقلاء من يرى أن هؤلاء كالذين يخربون بيوتهم بأيديهم خصوصاً إذا تأمّلوا في هذا الحديث :

« والذي نفس محمد بيده لن تموت نفس قبل أن تستوفي رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنّكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بغير طاعة الله لأن ما عند الله لا يُنال إلاّ بطاعته ، جفت الأقلام وطويت الصحف » . رواه أبو داود عن أنس بن مالك ، وأبي هريرة نسبه صحيح ، وأورده بمعناه مسلم .

"القابل" و "الفاعل" ؟

يرى بعض العقلاء أن الإعلام العربي قد أسرف على نفسه وعلى الناس في تصوير أبعاد القوى الصهيونية بصورة ساهمت إلى حد كبير في خلق نوع من الإحباط النفسي لدى الكثيرين ، وبصورة خاصة لدى الأجيال الصاعدة ، والتي ما تكاد ترى أو تحس بكارثة هنا وهناك أو أزمة هنا أو هناك إلاَّ وكانت أصابع الصهيونية العالمية خلفها ، وبذلك نكون قد ساهمنا إلى حدٍ غير مقبول في الترويج بفكرة أن القوى الصهيونية هي قوى لا تُقهر ، وعمدنا بأيدينا إلى بثّ شبح الصهيونية في كل شيء ، وكأننا إنَّما نساهم بالإشادة بها . فكل خلاف بين الدول العربية جعلنا مصدره تدبير الصهيونية ، وكل تخبّط اقتصادي أو فشل عسكري نجعل مردّه أصابع الصهيونية العالمية ، والحرب العراقية الإيرانية مردَّها القوى الصهيونية ، وحرب الدول العربية لبعضها بأيد صهيونية ، وحرب القرن الأفريقي بأصابع الصهيونية العالمية ، وهكذا نجيّر كل مشكلة تنشأ في عالمنا العربي إلى أصابع الصهيونية العالمية .

فصوّرناها على أنها القوى التي لا تقهر ، كما أسلفت ، وروّجنا لهذه الفكرة بصورة أصبح مردودها السلبي على أجيالنا الصاعدة بل وحتى على أجيالنا الحاضرة أكبر بكثير من الهدف الذي كنا نسعىٰ إليه وهو فضح المخططات الصهيونية ، إذ أصبح المردود عكسياً عندما حوّلنا الصهيونية إلى شبح يظهر في كل مكان ويخلق كل مشكلة ، ويثير في أركان عالمنا العربي زوابع لا طاقة ولا قبل لنا بها ، فهو نوع من المستحيل، حتى نمي في الاعتقاد بأن هذا المارد الصهيوني الجبار أمر لا قِبَل لنا به ولا حول ولا قوة لنا ولا قدرة لنا بالتصدّي له ، وأن كل ما هو مطلوب منا هو أن نتراجع بانتظام وأن نتقبّل في سكوت وهدوء هذا الواقع وهذا الصراع غير المتكافىء الذي نصارع فيه أشباحاً ونتصدَّى لمارد لا قِبَل لنا به فروّجنا بذلك لأساطير ولوهم لا مبرر له ، إذ من يستطيع أن يواجه الأشباح التي تثير الدنيا من مكامن خفية ؟ ومن يستطيع أن يحارب الجبابرة والمردة التي تجوب الأفاق ؟

ولهذا ، فمن العقلاء من يرى أننا نبرر بهذا سلبياتنا ؛ فهزائمنا التي ذقنا مرارتها وآلامها جاءت منا ومن سوء الواقع الذي نحن فيه .

(هزيمتنا التي ذقنا مرارتها أتت منا ،
أتت من سوء واقعنا ،
أتت من جهلنا المفرط بكل حقائق الدنيا بحاضرنا ،

بماضينا ، أتت منا لأننا إتكاليون) .

إننا نحاول في رأي بعض العقلاء أن نصوّر أنفسنا على أننا مجرّد ضحية ، وأننا لم نساهم للوصول بأمتنا للوضع الذي وصلت إليه بعجزنا وبتقاعسنا ، وإنّما نحن مغلوبون على أمرنا وضعتنا الأقدار في ظروف لا قِبَل لبشر بها ، وكيف يواجه البشر العاديون أشباحاً غير منظورة أو يتصدّون لغضبة المارد أو ثورة الجبار ؟ ، وهم كبير أوجدناه لأنفسنا وبرّرنا به تصرفاتنا وهزائمنا ، ثم جئنا لنساهم به في إحباط نفوس أجيالنا القادمة . وهو أمر خطير وآثاره المستقبلية كبيرة ومدمرة إذ أن هذا الوهم الذي أوجدناه بأنفسنا لنستريح من العناء الفعلي والجهاد هو أمر نساهم به في دعم الشبح الذي صنعته الدعاية الصهيونية ، ونروّج له وكأننا إنّما ندعم جهودهم الإعلامية . لا أحد يبرر فعل الصهيونية العالمية ، ولا أحد ينكر الجرائم التي ارتكبوها ، أو الدسائس التي يقومون بها ، ولكن تبقىٰ هناك حقيقة ثابتة وهي الفرق بين القابل والفاعل ، ولو لم يوجد من يقبل الفعل ويستسلم له لما وجد الفاعل الذي لا يرعوي ولا يكفّ عن النكاية والكيد وتدبير الشرور .

إن الصهاينة يخطّطون ويدبّرون ، ولكننا نحن الذين ساهمنا في هذه النتيجة بواقعنا المؤلم وبخلافاتنا وبتمزقنا وبخيانات البعض منا وبجبن البعض الآخر ، وحتى عندما

قامت أصوات مخلصة تدعو للعمل الجدّي والواقعي اتهمناها بالخيانة وكنا كالذين يخربون بيوتهم بأيديهم ، وانظروا واقعنا اليوم أليس واقعاً مؤلماً ؟ ، قتلنا بأيدينا أكثر ما قتل أعداؤنا ، وشرّدنا بأيدينا أكثر ما شرد أعداؤنا . إذن فالقابل شيء والفاعل شيء آخر ، وصحيح أن إسرائيل خطر وخطر كبير يهدد كياننا هي والقوى التي تدعمها ، ولكن من واجبنا أن لا نستسلم للأوهام أو الدعة والوهن الذي أصابنا ، ومن واجبنا أن نتوقف عن الترويج لفكرة المارد الصهيوني الذي لا يقهر والشبح الذي يصعب التغلّب عليه .

ألسنا أمة ذات ماضٍ عريق ؟ أوَلَسْنا من النفير والوفرة بحيث كان يمكن لنا ، بشيءٍ من حسن التدبير والعزيمة ، أن نكون في مكان الصدارة العالمية .

لقد آنَ لنا أن نخلص أنفسنا من هذه الأشباح الداخلية التي تجوس وتعيث ، في داخلنا ، وأن نؤمن أن الأشباح لا وجود لها ، وأن الأساطير حكايات خرافة لا أساس لها من الواقع ، وأن العالم كله لا مكانَ فيه للخوارق ، فكل عمل بجهد ، وكل نتيجة بسبب ، وكل شيء بمقدار .

وإذا كانت أسرائيل اليوم قوية فلأنها اتّخذت أسباب القوة منذ أمد بعيد ، وإذا كنا اليوم ضعفاء ، ومتخاذلين ، فلأننا آثرنا الدعة ، وانسقنا وراء الخرافة ، واستحلت نفوسنا

المنكرات ، وتنكّبنا عن طريق الدين وتنابذنا باسم الشهوات ، وتحت علم الأحقاد الصغيرة ، والأطماع المردية .

إن « أصابع إسرائيل » الخفية ليست ، كما يعتقد بعض العقلاء ، في كل مكان ، وإنّما نحن الذين لا وجود لنا في أي مكان .

ويوم نوجد ، ونفعل ، ونتحرك ، ونتخذ للنتائج المرغوبة أسبابها المعروفة ، فسوف تتوقف شكوانا من القوىٰ التي لا تقهر ، ومن الأشباح غير المرئية ومن المردة المتجبرة التي تجوب آفاقنا ولا تطال .

فيا قوم : قليلاً من الأساطير ، وشيئاً من الواقعية .

ثم هل نضيف :

يا ويلنا من بعض عقلائنا . . . ؟!! .

هذا بهتان عظيم

من العقلاء من ينظر إلى العالم من حولنا فيندهش وكأن العالم قد انقلب رأساً على عقب ، وتبدلت المفاهيم واختلت القيم واهتزت الموازين حتى أصبح الكذب يسمى « سياسة » ، والنفاق يسمى « مجاملة » ، وخيانة الأمانة تسمى « مرونة » وتعاوناً ، وحتى أصبحنا نرى رجالاً من المفروض فيهم أن يكونوا صادقين معبّرين عن ضمير الأمة في أمانة وصدق يخرجون إلى الناس بأحاديث مليئة بالكذب الصريح والخداع البيّن دون أن يخافوا الله أو حتى يتحسّبوا لأبعاد تكشف خداعهم وكذبهم ، يكذبون على الله ويكذبون على الناس وحتى يصدق فيهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[1] . ومرد هذا الخداع هو المرض الذي استشرى في قلوبهم وغطى على عقولهم فأصبحوا في ظلمات بعضها فوق بعض .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٩ .

ولقد عجبت وأنا أستمع إلى مسؤول كبير في دولة عربية يتهم كل الأمة العربية بالخيانة وبالضلال ، وبأنها لم تقدم للقضية العربية أي شيء ، وأنه وقومه يتصدون لهذه المعركة .

وكان من الممكن أن يكون الأمر هيناً على النفس لو أنهم بالفعل أدّوا الأمانة وجاهدوا في الله حق جهاده ، أو على الأقل لو أنهم لم يصانعوا أعداء الله ويضعوا أيديهم في يدي الشيطان ، إذن لكان الأمر هيناً ولسهل على الانسان أن يتصور هذه الغضبة ويعذرهم ويتفهم أبعاد انفعالهم ، أما وقد أصبح الأمر واضحاً جلياً فمن الصعب على النفس قبول هذا اللون من السياسة الرخيصة التي لا تتفق مع مبدأ إسلامي ولا مع أخلاق عربية .

فالإسلام يدعو إلى الصدق ، والأخلاق العربية تدعو إلى ذلك وتجعل الوفاء من الصفات الأساسية للإنسان العربي ، فضلاً عن الدولة العربية ، فضلاً عن الأمة العربية ، لكنه المرض وصدق الله سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[1] .

ويبدو أن الإنسان يكذب ويكذب على طريقة وزير

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠ .

الإعلام الألماني في عهد هتلر ، الدكتور جوزيف غوبلس ، الذي قال : « اكذب ، اكذب لا بد يوماً أن يصدقك الناس» ، وبذلك يعتقد هؤلاء أنهم يستطيعون أن يخدعوا كل الناس كل الوقت مع أن المقولة المشهورة إنك تستطيع أن تخدع بعض الناس بعض الوقت أو لوقت محدود ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت .

والأدهى من ذلك أنهم يظنون بأنهم أذكياء وأنهم مصلحون وما علموا أن ما يقومون به هو الفساد والانحطاط والرذيلة ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾[1] ، يؤمنون بمثل إيمان السفهاء ويعملون بمثل أعمالهم ، يخادعون الله والذين آمنوا ويخونون أماناتهم ويطعنون أمتهم ويعمدون إلى تفريق صفوفها كلما اجتمع شملها ويرفعون رايات زائفة للإسلام ، والإسلام منها براء ، لأنه لا يعترف بإيمان السفهاء ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾[2] .

ويبتسمون في وجوهنا يظنون أننا ننخدع بذلك ، ثم

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١١ و ١٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣ .

ينصرفون إلى أوليائهم من شياطين الإنس ينفذون مخططاتهم ويعبثون بقضايا الأمة ومصيرها ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾[1] .

إنها تجارة رخيصة يتاجرون فيها بعرض الأمة ويعبثون بكيانها ويخربون الوطن بأيديهم ، فيا لها من تجارة خاسرة . . ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** ﴾[2] .

وإنه لأمر مؤلم جداً أن نرى هؤلاء الأدعياء والمنتسبين زوراً وبهتاناً إلى الإسلام يرفعون رايات إسلام جديد ونهضة جديدة ومبادىء جديدة في وقت يقول فيه الله سبحانه وتعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت**

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٤ و ١٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآيات ١٦ ـ ١٩ .

لكم الإسلام دينا ﴾[1] ، وفي وقت كنا نضج فيه بالأصوات ندعو إلى كلمة سواء ، من هنا من جوار الكعبة المشرفة ، وعند مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة ، كنا ولا زلنا نقول : إننا نعتز بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فتعالوا نتحاكم إليهما ونحتكم ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة فقد تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

اللهم اشهد بأنا ندعو إلى كلمة سواء وحسبنا الله ونعم الوكيل وصدق الله سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾[2] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٣ .

ويشرب قومنا ... كدرًا وطينا

يعجب كثير من العقلاء من قضية تبدل مواقف رؤساء الولايات المتحدة وتفهّمهم لقضايانا العربية ، وعدالة مطالبنا بعد تركهم للرئاسة وتقاعدهم ، فبعض هؤلاء الرؤساء كان شرساً ، وعنيفاً ، ومنحازاً إلى جانب المعسكر الصهيوني .

ولكنه تبدل بعد تركه لمركز الرئاسة وسدّة الحكم ، وأصبح وديعاً لطيفاً معنا ، ومتفهماً لقضايانا ، بل إن بعضهم اكتشف فجأة عدالة المطالب الفلسطينية ، وحق الأشقاء الفلسطينيين في العودة إلى أرضهم ووطنهم ، بل ورغب بعض هؤلاء الرؤساء والساسة الأمريكيون في العمل من أجل القضية ، وعلى أن يتم ذلك خلال القنوات والوكالات المعتبرة شرعاً طبعاً .

عندما كانوا أصحاب القرار كانوا يصمّون آذانهم ، ويغضون عيونهم عنا ، وكانت حناجرنا تبحّ من كثرة النداء ولا من مجيب ، وكانت حقوقنا تنتهك ولا من منصف .

ولكنهم اليوم أكثر تفهماً ، وأقدر على الاستيعاب ، فسبحان مغير الأحوال .
وجلّ من يغير ولا يتغير .

والحق أننا أمة طيبة القلب ، وناس طيبون نستقبل هؤلاء بصدر رحب وابتسامة عريضة ، ومروءة ترفض أن تهينهم في ديارنا ، وهم يحسنون الظن بذاكرتنا الغربالية ، فيركزون على مواقفهم الجديدة ولا يجدون حاجة لنكء الجراح القديمة .

« وإحنا من أولاد اليوم » .
« ويا هلا بضيف الرحمان » .

هكذا يتسوق هؤلاء الساسة بين ظهرانينا ، ويشكون لنا ظلم الصهيونية وتصلتها ، وأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم مثلنا إلى آخر الاسطوانة .

وعلى الرغم من عمق الدهشة والتعجب ، اللذين نعاني منهما ونحن نتابع هذا « الفتح السياسي » ، إلا أننا دون شك لا نملك إلا أن نلوم أنفسنا ، فلولا تردي الوضع العربي وما نعيشه من أزمات مختلفة لما تجرأ هؤلاء ولا أولئك على الاستخفاف أو الاستهانة بنا .

فقد حصل ما حصل وما يحصل بسبب سوء واقعنا وجهلنا المفرط بكل حقائق الدنيا .

وبسبب هذه الأزمات المتلاحقة :

أزمة في الأخلاق .

وأزمة ، بل أزمات في الاقتصاد .

وأزمة في السياسة .

والحبل على الجرار كما يقول المثل العامي اللبناني .

ونحن أعداد كبيرة جداً .

وثروات غزيرة .

وتراث حضاري كبير ، وكبير جداً .

ولكن تصرفاتنا صغيرة وصغيرة جداً .

نحن ، نصرخ بأعلى أصواتنا ، ونملأ الدنيا ضجيجاً ونداء واعتزازاً بأننا إخوة في الدم واللغة والجوار .

ومع ذلك فمعظم ما نحن فيه من بلاء بسببنا نحن وبأيدينا لا بأيدي الغرباء ولا الأعداء .

وننظر نظرة صادقة مجردة إلى خريطة العالم العربي ، ونحاول إحصاء الخلافات ، فسنجد الصورة قاتمة ، وقاتمة جداً .

وذلك أننا لا نعرف حدوداً نقف عندها في علاقتنا ، فإما أن نقبل على التعاون حتى الشمالة فنطرحه على شكل وحدة اندماجية ، « وحدة ما يغلبها غلاب » ، وأما أن نقبل على الخصومة حتى حدود الصدام المسلح بما يسبق ذلك ، من

مقدمات تقليدية ، كتبادل اتهامات الخيانة والعمالة والتآمر ، و . . « أعداء الله . . . أعداء الوطن » ودقي يا مزيكة على مرأى جماعة « العتبة قزاز » .

كيف نقنع العالم بأننا أمة واحدة لها تاريخ واحد ودين واحد ، ولغة واحدة ومصالح واحدة وعدو واحد ، ثم يرى كل هذا الاقتتال ، وهذه الحشود على حدودنا المشتركة فيما بيننا ، وهذه « الإعلانات » الموجهة منا وإلينا ، على طريقة « منكم وإليكم » ، مع الاعتذار لمقدم البرنامج .

كم من الصحف العربية مسخّرة للعمل ضد دول عربية شقيقة على طريقة « الإخوة الأعداء » .

وكم من الإذاعات الموجّهة موجّهة ضد دول صديقة وشقيقة أو لمجرد التشويش عليها وذلك أضعف الإيمان .

فهل بعد هذا يمكن أن نلوم رؤساء سابقين أن يتسوقوا أو ينسوا .

وصدق شاعرنا العربي :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

وليت عمرو بن كلثوم عاش ليعرف أننا شربنا طيناً وطحيناً .

فاللهم ، اللهم صحوة تعيد إلينا اليقينا .

« والعلم بحر كما يقولون » .

احلام العصافير

يحرص بعض العقلاء على التفكير والتدبر في موضوع الخلافة الإسلامية في الأندلس ، وكيف بدأت بمراحل قوية وشامخة سطر فيها الرجال الأوائل بقيادة طارق بن زياد صفحات رائعة من الشجاعة والثبات ، والتضحية ، كما قدموا صوراً مشرفة للحضارة الإسلامية .

ثم يقارن بعض هؤلاء العقلاء بين هذه الصور وما آل إليه الوضع عن سقوط غرناطة على يد أبي عبد الله محمد سلطان غرناطة وآخر ملوك الاندلس ، وهي صور تمثل أقسى مراحل الانحلال النهائي خصوصاً عندما تقدم ابو عبد الله من باب الطباق السبع راجلاً يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه ، فلما عرف الكاردينال أنه أبو عبد الله ترجّل عن جواده وتقدم إلى لقائه ، وقال أبو عبد الله :

هيا يا سيدي ، في هذه الساعة الطيبة تقدّم وتسلّم هذه القصور ، قصوري بإسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها لفضائلهما وزلات المسلمين .

هكذا سلّم أبو عبد الله المعقل الأخير من معاقل الاندلس ، وفي تلك اللحظات رفعوا صليب الملك فردناند فوق برج القصر الإسلامي ، وتزيد الصورة حسرة وألماً عندما نتتبع الرواية القشتالية فنرى منظراً أكثر بشاعة وأشد قسوة على النفس .

عندما تقدم أبو عبد الله للقاء عدوه الظافر ، وسيده الجديد ، في نفر من الفرسان والخاصة فاستقبله فردناند بترحاب وحفاوة . وتقول الرواية ، كما أوردها الدكتور محمد عنان في كتابه نهاية الاندلس ، بأن أبا عبد الله ترك جواده عندما رأى فردناند ولكن فردناند منعه وعانقه بعطف ومودة ، فقبّل أبو عبد الله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع ثم قدم مفتاحي البابين الرئيسين للحمراء قائلاً :

« إنهما مفتاحا هذه الجنة ، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في إسبانيا ، وقد أصبحت ، أيها الملك ، سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيماً عادلاً » .

وعلى الرغم مما يبدو في هذه الصورة من مبالغة وأسلوب أقرب إلى الأسطورة ولكنه يصور لنا حالة الانحلال التي وصل إليها الأمر بعد تلك الصورة المشرقة التي قدمها الأجداد ، ولا شك أن أبا عبد الله لا يتحمل وحده وزر هذه

المأساة ، فقد كانت سلسلة من الانحلال والضياع ومصانعة أعداء الأمة الذين قرعوا أجراس الكنائس في أنحاء الدنيا كلها ، يوم سقط الاندلس ، أو فلنقل آخر معقل من معاقل الإسلام فيه . صحيح أن أبا عبد الله لا يتحمل وحده وزر تلك النهاية ، ولكنه تولّى كبرها ، ولا شك في أننا لو نظرنا إلى الدفاع الذي تركه ، للخلف من بعده ، لرأينا كيف أدرك بعد فوات الأوان الأثر البالغ لحياته الأولى ، والتي أخلد فيها إلى المتعة ، بل المتع ، وجنح فيها إلى الخمول واللامبالاة ومحالفته لأعداء الأمة ، حتى أنه استعدى ملك النصارى على بنيه وعمه من أجل أن يستأثر بالملك ، على الرغم من أنه حقق ما أراد إلا أن الثمن كان غالياً ، يوم تحول إليه حليفه وعدوه الحقيقي وحاصر غرناطة ، وكانت المأساة المروعة ، عندها شعر بفداحة الخطر وعظم الخطيئة ، بعد أن سبق السيف العزل ، وعندها أيضاً أدرك الجميع ثمن الحرب الأهلية التي خاضوها وفتنوا بها قوة الأمة ، وبددوا مواردها ، ولماذا . . . ؟

ولماذا كان كل ذلك ؟ كان وللأسف الشديد لتحقيق أطماع صغيرة ، صغيرة وأهواء حقيرة ولم يدركوا أبعاد المصير الذي كانوا يندفعون ، بل ويدفعون الأمة نحوه ، فكانت تلك النهاية المؤلمة .

ولا شك أن دفاع أبي عبد الله ، الذي نقطف منه ما

يلي ، يعطي صورة حقيقية لما جرى ، قال ، وهو يخاطب سلطان فاس :

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب زمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم ، المقبّل الأرض تحت أقدامكم ، إلى أن يقول : بيدَ أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر ، واحترامي إليه أكبر . اللهم ، لا بريء فأعتذر ، ولا قوي فأنتصر ، لكني مستقبل مستعتب مستغفر وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » .

إلى أن يقول : غير أن الرعاع في كل وقت وأوان للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ، وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلف إلا من عصمه الله إليه منجذب ؛ وكأنه هنا يوضح سوء المشورة وتردي النصيحة التي كان يتلاقاها ممن حوله من الرعاع ، الذين كانت تهمهم مصالحهم الشخصية ، وتمنعهم من أداء النصح له وكشف عيوبه ، فكتموا الحق ولم يقوموا بتأدية الأمانة على وجهها ، فساهموا دون شك في وصوله إلى ذلك المصير .

ويختتم دفاعه بقوله : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً عن أرض أورثها من شاء من عباده » ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾[1] ، فليطر طائر الوسواس

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦٢ .

المرفرف مطيراً ، ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾[1] . . . ولم نستطع عن مورده صدوراً . . ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾[2] . « هكذا . . . حاول آخر ملوك الاندلس الدفاع عن نفسه ، واعترف إلى حد كبير بذنبه ، وأدرك فداحة خطئه ، غير أنه سعى إلى تصوير نفسه ضحية من ضحايا القدر المحتوم . ومهما يكن الأمر ، فقد كانت الصورة مفزعة مؤلمة ، والمأساة عظيمة ، خصوصاً عندما خفق علم النصرانية فوق سارية غرناطة .

وأعلن بذلك انتهاء دولة الإسلام في الأندلس ، وأسدل الستار على صفحات رائعة مجيدة من تاريخ الإسلام وحضارة المسلمين هناك .

وانزوى أبو عبد الله يتجرع الكأس الأخير في وقت تنطلق فيه مدافع الاستسلام وصاح كما صاح من قبل :

« الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كتب علي أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدي » . ويرى المؤرخ الأستاذ محمد عنان : أن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لا ريب فيها ، بيد أنه من

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٨ .

الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة المقصودة أو الجريمة العمد بل هي تبعة « التفريط » والتخاذل والخطأ وعدم التبصر في العواقب » [1]

ولعل من فضل الله عليه أنه، رغم كل تلك الظروف القاسية ، ظلّ محتفظاً بدينه ولم يتنصّر .

مرة أخرى، أقول إن بعض العقلاء يمعنون النظر في أبعاد هذه المأساة ، ويحاولون استخلاص الدرس المرير بل الدروس. فهذا حال رجل تخاذل واستهتر وصافح اعداء الإسلام من النصارى، فكيف بالذين يصانعون من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا بكتب الله، ولا برسله ويتوقعون منه خيراً ويرجون نصراً . [2]

لقد ضلّوا اذن وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهمَّ الطف بنا وبالمسلمين فيما جرت به المقادير واللهمّ ، اللهمّ لا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا ، ونعوذ بك من شرّ فتنةٍ لا تصيبنَّ الذين ظلموا منا خاصة . [3]

---

(١) نهاية الأندلس : محمد عبد الله عنان .

(٢) دول الطوائف .

(٣) مؤرخو الشرفاء : ليفي بروفنسال ترجمة عبد القادر الخلاوي .

العبقرية اليهودية

ليس غريباً ان تركز الدعاية الصهيونية دائماً على ما تسمّيه «العبقرية اليهودية»، وأن تسلّط الأضواء وتتقول كما تريد حول «العباقرة اليهود» وإنجازاتهم الفريدة ، حتى بلغ الأمر بمناحيم بيغن أن قال إن اليهود هم الذين بنوا أهرام مصر . . .

ذلك ليس غريباً ، فهو جزء من اللعبة الصهيونية التي نعرفها جيداً، والتي ما كان اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها سوى جانب منها، ما دامت النظرية الصهيونية تقوم على فكرة «الشعب المختار» المزعومة، محاولة توكيدها بالباطل قبل الحق، وبالكذب قبل الصدق.

ولكن الغريب ـ كل الغرابة ـ ان نجد بين الكتّاب العرب من يجاري الصهيونية في لعبتها الرخيصة تلك فيشيد ـ بذلة مهينة ـ بما يسميه «العبقرية اليهودية»، ويدعو ـ بوقاحة غريبة ـ إلى تلاقح العبقرية اليهودية مع العبقرية التي صنعت «أمجاد

الفراعنة»، وينادي بإنكار العبقرية العربية واستنكارها، والحط من قيمة الحضارة الاسلامية وإنجازاتها، ويشيد ـ فقط ـ بالعبقرية اليهودية أولاً وعبقرية الفراعنة ثانياً .

والأغرب من هذا كله، أن أولئك الكتّاب انفسهم، كانوا، قبل «الكامب»، من أشد مهاجمي العنصرية الصهيونية ومن أشرس اعداء الإجرام اليهودي، ولبعضهم في ذلك كتب عديدة، ساقوا فيها الشواهد والأدلة على إفلاس الفكرة الصهيونية، وأكّدوا أن إسرائيل مآلها، في القريب العاجل، إلى الزوال .

* * *

نحن ـ الآن ـ لا نبحث في ذلك التناقض المعيب، والقفز من الموجب إلى السالب وبالعكس، والتقلب في المواقف، والارتداد عن المباديء، فذاك شأن ـ ويا للأسف ـ بعض إفرازات حالة التقلقل والفوضى التي تعم الحياة الفكرية والثقافية في بعض الأقطار العربية .

نحن ـ الآن ـ نبحث في العبقرية اليهودية ، ونتلمس وجودها ، ونعلّل أسباب هذا الوجود ، ونحدد أبعاده .

وبداية البحث هي في الاشارة، بقوة، إلى أكذوبة الأكاذيب التي تقوم عليها النظرية الصهيونية وهي ان اليهودية دين وعنصر في آن واحد.

تلك الأكذوبة تفضحها وقائع مرئية لا حصر لها ،وأقربها إلى النـظر انفسـام المجتمـع الاسـرائيلي الى نـوعين همـا الإشكينازيم (وهم اليهود الغربيون) والسفـرديم (وهم اليهود الشرقيون) .

فلا صلة ـ لا أدنى صلة ـ ما بين النوع الأول والثاني، لا في الشكل وتكوين الجمجمة، ولا في اللغة ،ولا في المستوى الثقافي والحضاري بين النوعين، لأن الأوائل هم أوروبيـون، ولأن الآخـرين شرقيـون جاءوا من مجتمعـات عربيـة وهنديـة وغيرها، فلا يجمع الطرفين سوى الـدين اليهودي وحـده، أما التكـوين العنصري، والمستـوى الحضـاري والنمط المعيشي فمختلف تماماً لدى الطرفين.

وإذا كان هناك عدد من العباقرة اليهود قد ظهروا فعـلاً، فما ذاك لأنهم يهود، وإنما لأنهم عاشوا في بيئة متقدمة يستطيع المرء معها أن يجد مجالاً للتعبير عن إمكاناته، يهودياً كـان أم غير يهودي.

والدليل على ذلك سؤال :

● لو أن اينشتاين (اليهـودي) قد ولـد وعاش في الهنـد مثلاً، فهل كان بوسعه أن يضع نظرية النسبية وأن يجد مجـالاً لتحقيق المجد العلمي الذي حققه في العالم الغربي؟

● ولو أن كارل مـاركس (اليهودي) قـد ولد وعـاش في

كينيا، مثلاً، فهل كانت تخطر بباله نظريته البائسة في الإلحاد وديكتاتورية البروليتاريا؟، وهل كان يستطيع ،أو يجد حاجـة ، لأن يضع كتابه «رأس المال»؟

● ولـو أن عازف الكمـان المعاصـر الشهير، «يهـودي منوهيم» (وهو بالمناسبة ليس صهيونيـاً) ولد وعـاش في زامبيا مثلاً، فهل كان يستطيع بلوغ ما بلغه من شأوٍ في العزف على الكمان ويحقق ما حقق من شهرة ومجد ومال؟؟

وبالمقابل:

هـل كان جميـع الذين سـاهموا في صنـاعة الحضـارة الانسانية الراهنة من اليهود، وأن العبقرية صفة لا تـطال سوى اليهود وحدهم دون سواهم؟؟

الجواب على ذلك كله هو أن الإنسان ابن بيئته، أياً كان دينه ومذهبه وعنصره، وأن العبقرية موهبة لا تجد مجالاً للتفتح والظهور إلاَّ في المناخ الملائم لذلك .

وليس أدلّ على ذلك من هذا العدد الوافـر من العباقـرة الزنوج في أمـريكا، أمثـال الدكتـور جورج واشنـطن كارفـر، والكـاتب ريتشارد رايت، وذلـك العدد الكبيـر من الموسيقيين والابطال الريـاضيين الزنـوج، مع ان زنـوج أفريقيـا لم يظهـر منهم، في افريقيا ذاتها ،عبقري متفرد بالمستـوى الذي بلغـه زنوج امريكا.

القضيـة ـ إذن ـ ليست قضيـة عنصـر ودين ولا مـواهب نادرة ، وإنما هي قضية ظروف وبيئة ومناخ حضاري قبل كـل شيء، والعبقرية اليهودية الفريدة المزعومة ليست سوى أكذوبة واحدة من ألف أكذوبـة أخرى تـروّج لها الـدعايـة الصهيونيـة وينادي به مرضى النفوس من كتّاب « الكامب » وصحفييه .

نريد دليلاً آخر؟

إننا نجده في الانجـازات العظيمـة للحضارة الإسـلامية أيام ازدهار الدولة الإسلامية وعظمتها وشموخها .

لقد كان من شأن الرقي الحضـاري، الذي بلغتـه الأمة الإسـلامية في تلك الحقبـة، أن ظهر ذلـك العـدد الكبيـر من العلمـاء والبـاحثين والكيميـائيين والفيـزيـائيين والمهنـدسين والمعماريين والعسكريين والمؤلفين والأطباء والفنانين ، ومـع أن الغالبية العظمى منهم كانت من المسلمين فقد كان فيهم، أيضـاً، بعضٌ من غيـر المسلمين الـذين وجـدوا في البيئـة الإسلامية المزدرهة مـا أفسح المجـال لمواهبهم وعبقرياتهـم لكي تتفتح وتقدم عطاءها .

ولم يقتصر أولئك العباقرة المسلمون على عنصر معين، ولا على بلد معين، بل كان فيهم الأندلسي والعربي المشرقي والعربي المغربي والإيـراني والأفغاني والبخـاري والأوروبي، لأن الحضـارة الإسـلاميـة كـانت قـد فتحت الأبـواب أمـام

العبقـريات كي تنمـو وتزدهـر، مستفيدة من البيئـة الفـذة التي عاشت الأمة الإسلامية فيها، ومع هذا فإننا لم نزعم أن العبقرية وقف على الأمة الإسلامية وحدها، لأننا قوم صادقون مع أنفسنا ومع غيرنا، ولأننا نعرف بأن للعبقرية شروطاً ومناخاً وبيئة، وأن ذلك هو ـ بالتحديد ـ تفسير ظهور عبقري مـا في بلد ما، فـلا يبقى لليهودية بعد ذلك من حجة في الزعم بانفرادها بالعبقرية، ولا يبقى للصهيونية، من ثم، أي سند في الادعاء بـأن قومهـا وحدهم هم العباقرة.

* * *

نحن، إذن، لا ننكـر العبقريـة اليهوديـة لأن أصحـابهـا يهـود ، وإنّما ننكـر أن العبقريـة هي حكر لليهـود وحـدهم ، ونحن لا نستغرب ان يزعم اليهود انفرادهم بالعبقرية لأن ذلك ليس سوى قطرة من بحر أكاذيبهم .

ولكننا ننكر أشد الانكار، ونستنكر أشد الاستنكـار، أن يوجد في أرض عربية من يسخّر قلمه للإشادة بالعبقرية اليهودية وهـو يعلم ـ وقـراؤه إن وجـدوا يعلمـون ـ أنـه كـاذب . . . كاذب . . . كاذب .

وصـدق المثل المصـري القديم الـذي يقـول إن «اللي اختشوا ماتوا».

... رداء الكبرياء

الشيطان لم يطرد من الجنة لأنه ارتكب جريمة الـزنى، ولم يطرد لأنه سرق، ولا لمثل ذلك من الجرائم، ولكنـه طرد بسبب «الأنـا»... التكبر... التعـالي ... ﴿ **أنـا خيـر منـه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾[1]، فقد رد الأمر على اللّه وارتكب بذلك الخيانة العظمى، وأوضح اللّه عـز وجل أبعـاد هـذا التكبـر ﴿ **استكبـرت أم كنت من العـالين** ﴾[2] . فليت شعري، كم من البشر دمّرتهم هذه «الأنا»، ووسوس لهم بهـا الشيطان ليضلّهم كما ضلّ هو رغم تحذير اللّه عزّ وجلّ .

﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء واللّه يعدكم مغفرة منه وفضلاً واللّه واسع عليم** ﴾[3] ، وقـد بدأ الشيـطان بأبوينا عليهما السلام ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾[4] ولكن آدم عليـه

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٢ .
(٢) سورة صّ ، الآية ٧٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٨ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية ٢٢ .

السلام استدرك مباشرة بفضل اللّه عليه ولم يقل بتكبر وإنما قال في خضوع وذلك : ﴿ **ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي** ﴾[1] فغفر له فأعانه اللّه بما تلقى من كلمات فتاب عليه.. ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[2] .

فهـل يعي أولئك الـذين يمكر بهم الشيـطان ويخدعهم ويركض عليهم بخيله ورجله ويقودهم إلى غرور وتكبر وإلى الـ أنا «المدمرة»؟ فهل يعوا الدرس فيعودوا إلى اللّه أسوة بـأبيهم آدم عليـه السلام، أو يتخبّـطوا في متاهـات الكبر والعلو على النـاس فيصيبهم مـا أصـاب ابليس من لعنـة وطـرد، وصـدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما رواه عن ربه: «الكبرياء ردائي فمن تردى به قصمته ولا أبالي».

كنـا نجلس في واحدة من تلك السهـرات الـرمضـانيـة المباركة، نتجاذب أطراف الحديث، وننتقل من مـوضوع إلى آخر، ويدلي هذا برأي في مسألة، ويروي غيره طرفة في مسألة أخرى، ومن قضايـا الدين، إلى شؤون الاجتمـاع، إلى اخبار السياسة، وحتى برامج التلفزيون ودرجات الحرارة المرتفعة في بعض المناطق، والجو الرائع في مصـائف المملكة ومنـاطقها الأخرى المرتفعة، وفي الطائف على وجـه الخصوص، حيث

(١) سورة القصص ، الآية ١٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٧ .

كانت سهرتنا في بيت أحد الأصدقاء في تلك الأمسية الرائعة من أمسيات رمضان، وفجأة قال قائل: إبليس يا جماعة الخير، وتلفّت أحدهم كأنما يبحث عن شيء ثم قال مازحاً: فين فين ؟ ومازحه آخر قائلاً كأنما يغمزه: ولماذا تبحث عنه بعيداً ؟، وتضاحك الحاضرون، حتى عاد الرجل يقول جاداً: يا جماعة الخير، ليس هنا بحمد اللّه ولا تبحثوا عنه الآن، لأننا في رمضان، «وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلمّ ويا باغي الشر أقصر» ولكن ألا ترون معي أن ننتهز الفرصة لنتزود في هذا الشهر المبارك بما يعيننا عليه في سائر الشهور، ونتعرف على حيله وأحابيله، وكيف «يتشيطن» بعض الإنس، حتى ليستلقي إبليس على قفاه فرحاً وإعجاباً بهم. قال احدهم مكملاً: أي واللّه، إن بعض ليبلغ أن يكون شيطاناً بما يأتيه من أفعال أو ما يتخلق به من أساليب.

واندمج الحاضرون في الحديث عن ابليس، وبدأوا قصته منذ البداية. لم تكن معصيته عادية، فقد تأبّى على امر اللّه ،ورفض الانصياع له، وتجاسر على تبرير فسقه بحيثية ليست من صنعه، ولا تعطي ذاته سلطة منفصلة عن سلطة الخالق، فكانت شنيعته الكبرى «أنا خير منه» فكانت تلك الـ «أنا» أول شر في الوجود، وكان رصيدها من الكبر والتكبر، بداية استدراج الانسان للمخالفة عن أمر اللّه وطاعته فيما يدعونا إليه وينهانا عنه .

لم يكن ابليس شيخ الملائكة، لا ولم يكن من الملائكة على الإطلاق، ولكنه ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾[١] وقال ﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[٢] الخلد، والخلود، والخالدين، وملك لا يبلى.

هل خاطب ضعفاً في البشر، أم خاطب نزوعاً فيه إلى شيء خارج عنه ليس من طبيعته، بل ليس في طبائع الأشياء ، ملك لا يبلى.

أياً ما كان الأمر، فقد دلهما بغرور وعصى آدم ربه فغوى ثم أدرك آدم وزوجته خطأهما ﴿ فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[٣] وقالا : ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا ﴾[٤] وتضرعا إليه تائبين ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾[٥] وهبط آدم وزوجه إلى الأرض.

كان الرافعي رحمه اللّه يقول: «لم يعرف آدم حق الجنة فعوقب ألا يأخذها إلا بحقها»، ولكنا نقول ان الأمر بالهبوط لم يكن عقاباً لهما، فلم يكن اللّه ليُعقب توبته بعقاب، أو يتوب على أحد ثم يعاقبه على ما تاب عليه، ولكن كان الهبوط ليكونا

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٠ .
(٢) سورة طه ، الآية ١٢٠ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٢٢ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية ٢٣ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ٣٧ .

حيث أراد اللّه للإنسان ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1] ليقوم بما أعده له فيها وهو شرف الخلافة عن اللّه بكل جوانبها وأبعادها .

وإبليس عصى، لم يقتل ولم يشرب خمراً ولم يزن ولم يسرق، ولكن معصيته كانت أكبر من ذلك جميعاً، فقد فسق عن أمر ربه، وأبى واستكبر، ورد الأمر على صاحب الأمر في كل ما يصدر من أمر.

والكبر والغرور كما نرى في الحياة، بداية النهاية في كل الأحوال. حدد إبليس خيريته بحالة في نفسه رآها لنفسه ، فكانت «أنته» الشنيعة فأهلكته، وتطلع آدم وزوجه إلى ما فوق الـ «أنا» البشرية، أن يكونا ملكين، فكانت الحالة التي وصفها اللّه بقوله ﴿**فدلاهما بغرور**﴾[2] واطردت المسألة عبر مسيرة البشرية ولا تزال.

﴿ **ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه اللّه الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا احيي وأميت** ﴾[3] . هذه الـ « أنا » صدرت من معيار الكبر والغرور، ورؤية القدرة البشرية على الخلق، في ظل استبداد الملك،

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

وطغيان القهر، وغرور الذهول عن النفس والحق، مع انعدام رؤية القدرة الإلهية العادلة الحكيمة السرمدية .

وهذا فرعون مصر، عندما أصابه الكبر والغرور، عندما أصابته الثروة والجاه والسلطان، قال: أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ فتألّه، وقال: أنا ربكم الأعلى. وطبيعي انه لم ير أنه هو الرب وكفى، وإنما رأى نفسه فوق «أرباب». ولا بد أن نتصور فيمن حوله من مكّن لهذه الحالة الشعورية في نفسه ، حتى تطلّع إلى بناء صرح يطلع منه إلى إلّه موسى. ولم يكن غريباً بعد أن يتهم من هو أشرف منه، فيتطاول على مقام النبوة بعد تطاوله على مقام الربوبية فيتهم موسى عليه السلام في جهالة وبذاءة وسوء أدب، ويرميه بظن كاليقين بأنه من الكاذبين، واستخف قومه فاطاعوه.

وهذا قارون، كانت العصبة من الأقوياء الأشداء تنوء بحمل مفاتيح كنوزه، فما بالنا بكنوزه ذاتها، وسبحان العاطي، فهل رأى في ذلك نعمة اللّه وفضله عليه، أم أطلت الـ «أنا» الخبيثة المهلكة، وغرّه ما ظنه في نفسه من علم أو قدرة على جمع الثورة، أعمته عن واهب القدرة؟ حتى قال: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي** ﴾[1] . ﴿**أوَلَمْ يعلم أن اللّه قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً** ﴾[1] ؟ وكذلك أهلك

(١) سورة القصص ، الآية ٧٨ .

اللّه من بعده من القرون من لم يقر خالقية اللّه في كل ما خلق، وقدرته ونعمته في كل ما أعطى ومنح من ملك وجاه وسلطان، أو مال وولد وعافية، أو نعمة من نعم اللّه التي لا حدود لها ﴿**وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها**﴾[1]، وهو معاقب من لم يعرف فيما رزقه اللّه حلق اللّه ، وحقوقاً توزعت لغيره ، فيما وهب عبده .

فلو كان مسؤولاً لأدرك حقوق وواجبات مسؤوليته ،ولو كان اميراً أو وزيراً أو تاجراً أو أجيراً لكان أمامه دائماً «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »، ولو كان ذا مال، لوجب عليه ـ خلافاً لبعض الظواهر والمظاهر التي نراها ـ أن ينظر قانون اللّه فيما عنده ، فالمال للّه ، وهو مستخلف فيه، وقد اكتسبه من حلال طيب بالجهد والعمل المشروع، وهو لا ينفقه إلا في الحلال من وجوه الانفاق المشروع، وهو يؤدّي حق اللّه فيه وحقوق العباد، ويوسع على المحرومين، وفي كل مناسبة خيّرة يعينه اللّه عليها، وهو يعلم أنه إذا عصى اللّه بماله، أو بعافيته وشبابه، فسوف تكون مصيبته الكبرى أنه لا يعصى اللّه إلا بنعمة من نعم اللّه عليه، ولا ينبغي أن تكون معصيته بالتكبر مما لديه من مال، أو التعالي على الناس أو العجب أو التفاخر بما يجلبه له. نعم إن اللّه يحب ان يرى آثار نعمته على عبده،

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .

ولكنه لا ينظر إلى من كان في قلبه مثال حبة من كبر.

ومهما كان غنى الإنسان أو ثروته ،فلن تكون قيمته بما في جيبه أو خزائنه، وإنما بمقادر ما يعمر قلبه من التقوى ونور الإيمان، وتواضع للّه، ولو أحس أنه «استغنى» بماله، لكان في ذلك هلكته، لأن رؤية الذات في حالة الاستغناء هي الوجه الآخر للطغيان المدمر ﴿ **إن الإنسان ليطغى * إن رآه استغنى** ﴾[1] ،أي رأى نفسه في تلك الحالة، أي أنها رؤية نفسية أو حالة شعورية، ولذلك كان نداء التوازن الخالد لكل البشر في قوله تعالى :

﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى اللّه واللّه هو الغني الحميد**﴾[2].

يا كل الناس، أنتم الفقراء المحتاجون أبداً إلى اللّه الغني، محتاجون إليه في الغنى والفقر، في العافية والمرض، وفي اليسر والعسر، في المنشط والمكره. ومهما كان فينا من أغنياء أو كانت لأغنيائنا من بلايين، فهل يمكن أن يكون لبشر في أي عصر ما كان لنبي اللّه سليمان عليه السلام ﴿ **ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي** ﴾[3] .

---

(١) سورة العلق ، الآيتان ٦ و ٧ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ١٥ .

(٣) سورة صّ ، الآية ٣٥ .

فماذا رأى سليمان عليه السلام في نفسه من ذلك الملك ؟ هل رآه استغنى؟ هل تكبَّر وطغى؟ أو آثر الحياة الدنيا وزخرفها وزينتها؟

لقد رأى فيه نعمة اللَّه أولاً وابتلاءه ثانياً فقال: ﴿**هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر**﴾[1] . يا سبحان اللَّه ، ألا إن فضلك عظيم، نسألك اللهم ان تغنينا بالافتقار إليك، ولا تفقرنا بالاستغناء عنك . اللهمّ آمين .

(١) سورة النمل ، الآية ٤٠ .

الآن ... ياعمر .. ؟!

من العقلاء من يرى أن محبة الرسول صلّى الله عليه وسلم ذات علاقة مباشرة بالقيمة الإيمانية ، فهذا رسول الله ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، يقول عن معنى محبته وأبعادها : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » . هكذا يعلمنا كيف تكون محبته .

وهذا ثاني الخلفاء ، الناطق بالحق والصواب ، يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي » ، ويجيبه عليه السلام : « لا ، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، فقال عمر رضي الله عنه : « فأنت الآن أحب إلي من نفسي » ، فقال رسول الله صلّى الله علسه وسلم : « الآن يا عمر » .

وهذا أبو بكر الصدّيق ، ثاني اثنين ، وقد قام في الناس خطيباً يدعوهم إلى الإسلام بمكة فأخذوه في ردائه وضربوه فأغمي عليه فلما أفاق قال : « أروني محمداً صلى الله عليه وسلم » فلما أتت به أمه في دار الأرقم ، قال: « زال عني كل

ما أجد برؤيتك يا رسول الله » .

رضي الله عنك يا خليفة رسول الله ، تتحمل كل هذا الأذى وتقاسي ألوان العنت ولا يشغل بالك ويقلقك غير سلامة رسول الله ، وعندما اطمأنت نفسك إلى سلامته ، عندها فقط ، سرت العافية في جسدك وارتحت ، وزالت آلامك ومتاعبك .

يا لها من صورة رائعة لمعنى الحب الصادق في الله تبارك وتعالى ، الحب الذي جعل رسول الله وسلامته وعافيته أحب إليك من سلامتك ، فهو أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك . هنيئاً لك يا سيدي بهذا السمو النفسي ، وهذه الأثرة التي تعلّمنا فيها كيف يكون حب رسول الله .

ولا غرابة ، فأنت أول من صدّقه ، وخير من آزره وأصدق من صادقه ، وأشجع من خلفه في أمته وعضّ على سنّته ، وقد كان هواك وتصرفاتك تبعاً لما جاء به عليه السلام .

ولا غرابة ، أن يسير الناس على هذا النحو ، ويطبقون نفس المنهج في محبته صلّى الله عليه وسلم .

فهذه امرأة من الأنصار قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد ، وكانوا يحاربون مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وعندما أخبروها بموتهم كانت سلامة رسول الله هي التي

تشغلها ، قبل كل شيء ، وقبل أن تفكر في مصيبتها في هؤلاء جميعاً ، ولهذا فقد صرخت : ما فُعِلَ برسول الله ؟ . هكذا ، في لهفة وقلق على رسول الله ، فقالوا لها : هو بخير بحمد الله كما تحبين ، وعندها فقط اطمأنت ، رغم فداحة مصيبتها وعظم مصابها ، وقالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت كلمتها المشهورة، والتي ذهبت نوراً مشعاً ، عبر التاريخ ، يشهد بإيمان هذه الأنصارية : « كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله » .

ما أروع هذه الصورة الإيمانية لهذه المرأة الأنصارية التي أعطت درساً بليغاً في أبعاد محبة رسول الله ، وإنا لنحس ونستشعر أبعاد هذا الحب اليوم ونحن نقرأ قصة الأنصارية ، فهو حب صادق يتجدد عبيره عبر التاريخ .

وهذا زيد بن الدثنة رضي الله عنه ، عندما أخذه المشركون من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان ـ قبل إسلامه ـ : يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ ، فكان جواب زيد : لا ، والله ما أحب أن تصيب محمد شوكة وأنا جالس في أهلي ، فقال أبو سفيان يومها : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً .

ورويت نفس القصة ، وبنفس الثبات والحب عن خبيب

رضي الله عنه عند صلبه بالتنعيم .

هكذا ، كانوا يتسابقون للذود عن رسول الله ، ويقدمون أرواحهم فداء له صلّى الله عليه وسلم ، ويتسابقون في سبيل رضاه وراحته ، ويتسارعون في سبيل دفع الأذى عنه .

وهذا غَزِيَّة حين طُعن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يحميه في إحدى الغزوات والنبل يقع على ظهره وهو منكفىء على رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتى استشهد غزية وهو على رأسه الشريف صلّى الله عليه وسلم .

وفي غزوة أحد ، قال طلحة رضي الله عنه : نحري دون نحرك يا رسول الله ، وشلت يده يومها ، وقال ذلك أيضاً أبو دجانة رضي الله عنه فوقع سهم في نحره ، وكذلك قتادة رضي الله عنه قالها ، وأُصيب في عينه بسهم فردّها رسول الله صلّى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه .

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصدقوا في محبتهم لرسول الله فبذلوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم سخيّة من أجل سلامة حبيبهم رسول الله .

صدق في المحبة ، وثبات في العقيدة ، ووفاء ما بعده من وفاء رضي الله عنهم جميعاً ، سطروا لنا أجمل صور المحبة ، وأصدق أشكالها ، وكانوا موقنين بأن النبي الكريم

أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وكانوا رضوان الله عليهم حريصين على أن يكون هواهم وتصرفاتهم تبعاً لما جاء به رسول الله محبة لله ولرسوله ، واستجابة لأمر الله : ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** . . . ﴾[1] ، وقد كانوا يتسابقون إليه في السلم أيضاً كما يتسابقون للدفاع عنه عند الحروب .

وقد ذكرو أصحاب السير أن قريشاً أرسلت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهو بالحديبية ، فرأى رسولهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فوجد الناس يمسحون بوضوء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فلما رجع إلى مكة قال رسول قريش : يا أهل مكة كيف يسال دم محمد وأصحابه لا يتركون قطرات وضوئه تقع على الأرض ، وكانوا يقتتلون على وضوئه فمن لم يجد شيئاً أخذ يد صاحبه فمسح بها وجهه .

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ .

صلّى الله عليك وسلّم يا سيدي يا رسول الله ، وقد

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

أرسلك الله رحمة للعالمين ، وجعلك على خلق عظيم ، وبالمؤمنين رؤوف رحيم .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1] ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[2] .

ولا غرابة ، فقد اصطفاك رب العالمين ، وصلّى عليك وملائكته ، وختم بك الرسالات ، وأعطاك الشفاعة يوم لا يشفع عنده إلا بإذنه وقد وسع كرسيه السموات والأرض .

﴿ إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليماً ﴾[3] .

وقد روى مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » .

ولا شك إذاً في أن محبة رسول الله صلّى الله عليه وسلم هي تمام الإيمان ، وهي التي حببت لهؤلاء الصحابة ولمن سار على نهجهم التضحية والفداء في سبيل دين الله

(١) سورة القلم ، الآية ٤ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٥٦ .

والذّود عن النبي الكريم .

وعليه فكل عمل المسلم يظل ناقصاً ، ويبقى إيمانه غير مكتمل بدون محبة رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

ولعله من المناسب إيضاح أن المطلوب من المسلم أن يستقر الإيمان كاملاً غير ناقص في قلبه وجوارحه ، ولكن هذا لا يأتي دفعة واحدة . دائماً يبدأ بالإسلام حيث يسلم الفرد لسانه ، كيانه للدين ، ويخضع جوارحه لكلمة التوحيد ، ولما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلم ، ثم يأتي الإيمان بعد ذلك مع التربية السليمة التي تنمي محبة الرسول في قلوب الناشئة وتأخذ بيدهم نحو الإيمان الكامل الذي يقوم على محبة رسول الله ، وها هو القرآن يوضح هذه الحقيقة في النظر إلى أولئك النفر الذين دخلوا الإسلام لأول مرة فأسلموا ، ولكن لم يكتمل الإيمان في قلوبهم :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾[1] .

إن اكتمال الإيمان لا يتحقق إلا بمحبته صلّى الله عليه وسلم وتعظيمه كما أمر الله ، ذلك التعظيم الذي لا يخالطه شرك ولا اعتقاد ربوبية فيه صلّى الله عليه وسلم كما جاء في

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٤ .

الحديث : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم » ، وقد قالت النصارى عن عيسى عليه السلام إنه ابن الله ، وإنه ثالث ثلاثة ، وهو بهتان وشرك عظيم .

وإنها لمناسبة طيبة نؤمن فيها ساعة ، نملأ قلوبنا وقلوب الناشئة بمحبة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وتلاوة سيرته ، والتعرف على شمائله ، سيما وأنه قد أطلّ علينا شهر ميلاده صلّى الله عليه وسلم ، الذي برز فيه نوره صلّى الله عليه وسلم للوجود فأضاء الكون وأسعده ، وأخرجه من الظلمات إلى النور ، فنعمت الذكرى هذه ، وحبذا زاد المسلم من حبّه صلّى الله عليه وسلم دائماً وأبداً وفي هذا الشهر الكريم . قد جاء في الحديث جواباً عن سؤال السائل عن صيام يوم الإثنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم ولدت فيه ، أنزل علي القرآن فيه » . وهكذا يعلّمنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن تذكر النعمة في يوم النعمة أمر مشروع ومحمود .

عليك صلاة الله وسلامه يا سيدي يا رسول الله .

"الكتابة" و"النقد" بين الهواية والاحتراف

ان تكون كاتباً هاوياً أو ـ على الأقل ـ غير محترف فهذا حق من حقوقك لا ينازعك فيه أو عليه أحد. لأنك انما تكتب بدافع من رغبة في اعماقك ، لتسطر على الورق ما يعنّ لك من افكار : شعراً او نثراً ، دراسة أو مقالة، قصة او رواية .

وانت ـ في جميع الاحوال ـ مسؤول عما كتبت . ومن حق القراء عليك ان يبدوا آراءهم فيه رضى أو سوا ه. وعليك ان تتقبل هذه الآراء بصدر رحب ، لأنها انما تمثل ردود الفعل الطبيعية لمن كتبت لهم . .

والكاتب غير المحترف يختلف عمن اتخذ الكتابة مهنة اساسية لأن الكتابة كمهنة تتميز بـ « الصنعة » و « الحرفية » و « القواعد » التي يحاسب الكاتب المحترف عليها ادق حساب ، ولا يجوز له ان يخرج عن حدودها الا ضمن اطار الاسلوب الخاص الذي اتخذه لنفسه .

والكتـابـة مسؤوليـة وأمـانـة . ولعـل قاعدة التأليف المهمة التي وضعها شمس الدين البابلي المتوفى في سنة سبع وسبعين بعـد الألف وهـو من علمـاء القـرن السـابـع عشـر الميـلادي . لعـل هـذه القاعـدة اصدق مـا يجب ان يلتزم بـه الكاتب اي كاتب عندما يـريد أن يؤلف أو يخـرج على الناس بمقـال او بحث . . اذ يجب كما يقـول البـابلي أن لا يخـرج المؤلف عن احد الأقسام السبعة التالية : ـ

١ ـ اما ان يؤلف من شيء لم يسبق اليه . يخترعه .
٢ ـ أو شيء ناقص يتممه .
٣ ـ أو شيء مستغلق يشرحه .
٤ ـ او شيء طويل يختصره دون ان يخل بشيء من معانيه .
٥ ـ أو شيء يرتبه .
٦ ـ أو شيء اخطأ فيه مصنفه يبينه .
٧ ـ أو شيء مفرق يجمعه .

ولهذا فالنقد بمعناه الفني الدقيق لا تجوز فيه « الهواية » ولا تجاز . .

فأما ان تكون ناقداً حقيقياً أو لا تكـون . ولا يجوز لك ان تتصدى للنقد بعد أن تصدّر نقدك بقول تعترف فيه بأنك ناقد هـاو وليس محترفـاً ، لأن معنى ذلـك انـك لست نـاقـداً متخصصاً ، وفي النقد يعتبر التخصص شرطاً اساسياً لا يمكن

التغاضي عنه ولا التساهل فيه . ومجرد اعتراف الناقد بأنه ليس متخصصاً يفرغ نقده ـ مهما كان قيّماً ـ من مضمـونه الفكـري ويهبط به الى مستوى القارىء العادي الذي يبدي آراءه بدافع احاسيسه الخاصة ، ومزاجه الشخصي ، فتكون تلك الآراء ، مهمـا نضجت ، مختلفة عن « النقـد » ، فهي ـ وكاتبهـا ، لا يصنفان في عداد العطاء النقدي . .

ولست ادرى لم يعتقـد بعض الذين يتصـدون للنقد في صحفنا ان النقد يجب ان يكـون قدحـاً وتجريحـاً ، وتجاهـلاً لـلإيجابيـات ، وبحثـاً عن النقـائض والمعـايب والهفـوات ، ومطالبة لصاحب الانتاج الـذي ينقدونـه ان يسير على هـواهم الخـاص ، ومـزاجهم الـذاتي ، والا فـإن عمله يعتبـر ـ في نظرهم ـ فـاشـلا . ونـاقصـا . و . . و . . وحتى غـدا النقـد عندنا أمراً يغلب عليه التعميم والرأي الشخصي مع افتقار الى الموضوعيـة ، وهـذا أمـر مؤسف . لأننـا في أمس الحـاجـة إلى النقد العلمي والموضوعي . ولكن الناقـد عندمـا يعمم ، ويجنح الى الرأي الشخصي ، وعدم المـوضوعيـة فإنـه يخرج النقـد عن اطـار الفائـدة المرجـوة منه . وكلما اتجـه الناقـد الى العموميـات واسلوب التعميم ؛ ادركنـا انـه يـراوح في مكـانـه ولا فـائـدة تـرجى من عمله ؛ فهو مفلس ليس لـديه مـا يقولـه . وكذلـك يؤلمني جـداً ان يتحـول النقـد عنـد البعض الى جـدل صـاخب لأنـه دائـماً ينتهي الى جـدل عقيم ومعـارك شـخصيـة . .

لا تسمو بالناقد ولا بنقده. وينطبق هذا على اولئك الذين يتصدون لما يوجه اليهم من نقد بانفعال يفقدهم القدرة على الرد الموضوعي. فيخرجون عن دائرة النقاش الموضوعي والحوار البناء الى الجدل العقيم ؛ وربما .دون ذلك؛ فيؤدون الى سقوط اعمالهم الأصلية. وقد تحبط دون شعور منهم. فالقارىء ناقد ومتابع للأديب الذي يعشق أدبه، ويكره ان يكتشف ان سماع المعيدي خير من رؤيته.

ولست اعيب على أي ناقد ان يبدي رأياً شخصياً بصورة مطلقة؛ ولكن الذي اعيبه هو ذلك الرأي الفردي الذي لا يعتمد على تحليل او يستند على دليل؛ ويفتقر الى التعليل المنطقي والموضوعي؛ ويتجه الى تعميم؛ وليس هناك ـ في رأيي ـ اخطر من ضحالة ثقافة الناقد وفساد ذوقه، وعدم موضوعيته في مثل هذا الاطار.

« من الشروط التي يتحتم ان تتحقق في الناقد الذوق لأنه الأساس في كل حكم والفيصل في كل نقد. واداة الذوق هي عواطفنا. أما أداة الفهم فهي عقولنا وافكارنا فنحن نفهم النص بعقولنا ونتذوقه بشعورنا».

ولعل الاستاذ احمد حسن الزيات؛ اوضح اهمية الذوق في النقد حيث حدد له مصدرين يستمد منهما النقد

الحكم في جميع قضاياه واحدهما العقل المتزن، ولذلك فهو يرى ان من وهب ثقوب الذهن يكون في امان من الزيغ. والمصدر الثاني عنده هو العاطفة، وهي الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس ، وهنا مجال الاختلاف . .

فكيف يكون الأمر، عندما يخلو النقد من العقل والعاطفة ويتجه الى جدل وضجيج لا ذوق فيه ولا حس ولا عاطفة، ناهيك عن رأي أو فكرة تحترم . فهو إذاً ليس نقداً. لأن النقد قيمة فنية كما اتفقنا، وهو قيمة عالية لا يحصل عليها، ولا يصل اليها الا قلائل، وهو محصلة رصيد ضخم من العلم والخبرة والمعرفة والمطالعة والتخصص، وهو كذلك قيمة اخلاقية، تضع الناقد كالقاضي أمام ضميره ، فلا يسمح لأهوائه الشخصية ولا لمزاجه الخاص ولا لعواطفه العادية ان تأخذه في هذا الاتجاه او ذاك ، بل يتخذ من الموضوعية المجردة مقياساً كمثل ميزان الذهب : يزن بدقة ، ويقوّم الاعمال بأمانة ، ويبدي الرأي ـ من ثمَّ ـ بصدق. .

وعلى الناقد ـ في رأيي ـ ألا يكتفي بالسلبيات وحدها ، بل عليه ان يأخذ العمل الذي ينقده ككل ، ثم يتولى تشريحه. . لا تجريحه(. . .) بطريقة فنية ، فيذكر السلبيات ويعلل وجهة نظره تجاهها ، ويذكر الإيجابيات ويعرض رأيه

فيها ، ثم ـ وهذا هو المهم ـ يقترح منهاجاً يبين فيه بوضوح انه رأيه الخاص ، المجرد من كل هوى ، وبذلك يستفيد صاحب العمل الفني من هذا النقد في نتاجه المقبل ، كما يستفيد القارىء بتكوين ملكة النقد الفني السليم لديه . .

واحسب أنه من الضروري ان اشير الى ان مقاييس النقد تختلف ـ بطبيعة الحال ـ من بلد لآخر ، ومن بيئة لأخرى ـ وان الناقد يجب ان يأخذ هذا الاختلاف بعين الاعتبار في نقده ، فمن الثابت ان وجهات النظر النقدية في اوروبا ، تختلف عنها في شرقنا العربي ، وان متطلبات العمل الفني ومواصفاته عندنا ـ في البلاد العربية ـ هي غيرها ، دون شك ، في بلاد اخرى .

والكاتب قد يكون اديباً عالماً بالنحو. أو متمكناً في علوم الصرف مثلاً أو مؤرخاً. ولكن الناقد مطالب بما هو اكثر من ذلك. وقد يكون جميع هؤلاء بالاضافة الى الذوق والحس الفني وسعة المعرفة بصورة عامة ،ولا بد ان يكون ذا معرفة واسعة وعقل بصير يوازن بين قول وقول. والزم شيء له هو الذوق المرهف ، والملكة الناضجة، والقلب الحساس .

خلاصة القول :

ان النقد مسؤولية جسيمة لا يجوز لمن لا يقدر على

حملها ان يتصدى لها . .

وان الكتابة مسؤولية تختلف في مضمونها عن مسؤولية النقد . فالكاتب ـ محترفاً أو هاوياً ـ مسؤول امام قرائه . .

ولكن الناقد ـ الناقد المتخصص ـ مسؤول امام ضميره . .

المراجع :

دراسات في النقد الأدبي ـ الدكتور كامل السوافيري .
دراسات في نقد الأدب العربي ـ الدكتور بدوي طبانة .
في اصول الأدب ـ احمد حسن الزيات .
في الأدب والنقد ـ الدكتور محمد مندور .

قالوا أن هناك مجلس أمن ... وهيئة أمم ...

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه . . .

فقد علمنا ان على وجه هذه الكرة الأرضية شيئاً اسمه « مجلس الأمن » . . .

بل وقيل لنا ان ذلك المجلس منبثق عن شيء آخر ـ اكبر منه ـ اسمه « هيئة الأمم المتحدة» . .

وزعم من نقل الينا هذه الانباء العجيبة ، ان مهمة « الشيئين » المذكورين هي ـ صدقوا او لا تصدقوا ـ اقرار السلام العالمي ، والحفاظ على حقوق الانسان ، ومنع نشوب الحروب ، واقامة جسور من التعاون الدولي و . . و . . اشياء كثيرة من هذه الأمور غير المعقولة التي كانت من احلام الفلاسفة منذ ايام افلاطون . . .

* * *

الفكرة ـ بحد ذاتها ـ امر طيّب ولا ريب . . .

فجميل ، دون شك ، ان يكون في الدنيا ـ ايامنا هذه ـ

شيء من ذلك : مجلس للأمن وهيئة للأمم وما ينبثق عنهما وما يتفرع ، لكي ينتهي العالم من ويلات الحروب ، ويتخلص من كوارث الاطماع والمؤامرات الدولية ، ويتفرغ كل بلد لبناء بلاده واسعاد مواطنيه ، متعاوناً مع البلاد او الشعوب الأخرى . . .

ولكنَّ ما جعلنا نشك في صحة تلك الانباء ـ رغم اننا استقيناها من مصدر حسن الاطلاع ـ ان العالم لم يعش في تاريخه كله فترة اسوأ من الفترة التي يعيشها الآن ، وان المطامع والاعتداءات وانواع الغزو الخارجي والداخلي قائمة على قدم وساق . . .

ولو مضينا نعدد على اصابعنا تلك السلبيات القاتلة ، لاقتضانا ذلك ان يكون لنا مائة اصبع ؛ بل ألف اصبع .

فهناك شعوب بأكملها ترزح تحت نير التسلط الشيوعي ، بعضها تحت اسم « الاتحاد السوفييتي » وبعضها تحت اسم « حلف وارسو » ، بغير ارادة اهلها ورغم انوفهم ، وتحت قهر القوة الغاشمة المتمثلة فيما يسمى بالجيش الأحمر .

ولو كان هناك ـ حقاً ـ ما يسمى بمجلس الأمن الدولي وهيئة الأمم المتحدة لكان لهما ـ دون ريب ـ موقف من هذا العدوان ، يضع حداً له ، ويحرر الشعوب المستعبدة ، ويترك لها حرية اختيار مصيرها .

وهناك شعب برجاله ونسائه ، وشيوخه واطفاله ، هو الشعب الفلسطيني : قد أخرج من ارضه ودياره بفعل القوة الغادرة المتمثلة في العدوان الصهيوني المؤيد ـ بلا حدود ـ من شياطين الأرض جميعاً ، ورغم مرور ثلث قرن على مأساة هذا الشعب فهو ما زال مشرداً بلا خطيئة ، يعيش تحت الخيام التي لا تمنع عنه قارص برد الشتاء ، ولا حارق حر الصيف ، فإذا كان هناك ، حقاً ، كما زعموا شيء اسمه مجلس الأمم ، او هيئة الأمن ـ وما ادري بالضبط الاسم الصحيح لهما ! ـ فإن من الثابت ان مما يتناقض مع ما زعموا من مهام ذلك المجلس او تلك الهيئة ، ان يستمر العدوان على الشعب الفلسطيني فلا يجد من ذلكما الشيئين الدوليين سوى القرارات تتلوها قرارات . ودون ان يتحرك ساكن من قضيته المجمدة ، التي كبرت وكبرت ، وتشابكت وتعقدت ، حتى باتت الحلول الدولية المطروحة لها ابعد ما تكون عن الحل الصحيح الذي يتمثل ، وبكل بساطة ، في ان يعود الشعب المشرد الى ارضه، ويعيش في سلام ووئام في بلده ودياره . .

* * *

ورغم ثقتنا المطلقة فيمن انهى الينا نبأ وجود ذلكما الشيئين الدوليين ، اللذين يحملان اسم « الأمم المتحدة » و « الأمن الدولي » فإن الشكوك ساورتنا في صحة ما تناهى الينا ، ونحن نرى الى شعب الافغان المسلم وهو يتعرض

لاعتداء صريح وواضح لا تنقصه الدبابات والمدرعات ولا يفتقر الى الطائرات وقوات الاحتلال ، دون اي ذنب جناه ، ومع هذا فإن اية هيئة دولية من تلك الهيئات التي يقال انها موجودة لم تتحرك تحركاً جدياً ، تضرب على يد المعتدي ، وترد كيد الطامع ، وتعيد للشعب الذي تعرض لذلك الغزو الفاضح حقوقه الطبيعية المشروعة . . .

ولقد رأينا الى المجاعة تفتك بالملايين في آسيا وافريقيا . . ورأينا الجفاف يقتل الحرث والنسل في بلاد كثيرة ، ورغم ذلك فإننا بحثنا عن دور ايجابي ، دور انساني . قد قام به ذلكما الشيئان الدوليان فلم نجد ؛ ووجدنا ـ بدل ذلك ـ مؤامرات مكشوفة ومتخفية لبسط نفوذ الدول الكبرى ـ بل والصغرى ! ـ على تلك البلاد التي يقتلها الجوع والظمأ ، بينما دول الاستعمار ـ شرقيهُ وغربيهُ على السواء ـ تغرقها بكراريس عن مبادىء كارل ماركس ولينين تارة ، ومحاضر اجتماعات مجلس الأمن وهيئة الأمم تارة ، والجائع يظل على جوعه ؛ حتى يموت ، والظامىء يظل على ظمئه ، حتى يهلك ، مما يجعلنا نشك في صحة ما قيل عن وجود تلك الجهات الدولية التي زعموا انها انشئت لتنشر الرخاء والسلام بين امم الأرض جميعاً . .

* * *

وهـل نتحدث ، ايضـاً ، عن الأزمـات الاقتصـادية المتلاحقة ، والتـلاعب بأسعـار الذهب والسلع والعمـلات ، بصورة فاضحة مفضوحة لا لبس فيها ، دون ان تتدخل اية هيئة دولية لتقف في وجه المتلاعبين وتقول لهم : مكانكم ؟ . .

ام نتحدث عن القنابل الموقوتة وغير الموقوتة في معظم انحاء العالم ، لا سيما في آسيا وافريقيا ، والتي زرعهـا نفس الـذين يهيمنـون على مجلس الأمن وهيئـة الأمم ، والـذين يتسلون ، بين الحين والحين ، بتفجير بعضها ، وإلحاق الأذى بالمتضررين منها ، فلا يسعفـونهم الا بقصاصات من الورق كتب عليها « قرار رقم . . . صادر عن مجلس الأمن » . . او « قرار رقم . . . صادر عن الأمم المتحدة » . . ولا نسمع ـ ابدا ـ ان اي قرار من هذه القرارات قد أطعم جائعاً ، او أسعف منكوباً ، او ردّ عدوانا . . ؟ . .

* * *

وكيف نصدق ان هناك شيئاً اسمه ـ كما قالـوا ـ مجلس الأمن ، وآخـر ـ كما زعمـوا ـ اسمه الأمم المتحـدة . . يعبث بهما مسخ مشوه تمثل فيه كل ما في الدنيا من شر وعـدوان ، ذاك الذي يسمى اسرائيل ، دون ان يدافع عن كرامة المجلس او الهيئة واحد من المهيمـنين عليهمـا ، ودون ان يكلف نفسه حتى عناء توجيه « اللوم » ـ ناهيك بالـردع والـقمع ـ إلى ذلك

المسـخ ، بل ـ على العكس ـ يتخـذ عند اللزوم من قـرارات الجهتين الدوليتين المذكورتين ستاراً يخفي به العدوان ويتستر به على الاجرام ، ويبرر به الاثم والغدر ؟ . . .

* * *

يا صديقي . . .

يا من انهيت اليّ نبأ وجود « مجلس الأمن » . . وابلغتني عن وجود « الأمم المتحدة » . . .

اعذرني . . ان قلت لك انني اشك فيما انهيت اليّ . . بل ولا اصدقـه . رغـم ثقتي بك ، وتصـديقي لك في امـور كثيرة اخرى . .

ذلك ان ما تقول لي يناقضه الواقـع ، ويجافيه ما نـرى في هذه الدنيا من شرور وآثام . .

فإن كنت ـ رغم ذلك ـ صادقاً . . فالحمد لله .

الحمد لله على كل حـال ، وفي كل حال .

فـالله وحـده ، جلت قـدرتـه ، هـو الـذي يحمـد في المكروه .

واحسب ـ بل اثق ـ ان وجود ما تزعم بـأنه هيئـة امم او مجلس امن هو ـ ان صح ـ على رأس تلك المكروهات .

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الغزو الخطير...

يأتي العدو مدججاً بسلاحه ، وخطط عدوانه ، فيزحف ، ويطلق آلات حربه ، سهاماً ورماحاً كانت أم قنابل وصواريخ ، فيراه المعتدى عليه رأي العين ، ويهب للدفاع عن نفسه وجهاً لوجه ، وصدراً لصدر ، فلا يجد صعوبة في تحديد العدو ومكان قدومه، ومعرفة اغراضه وأهدافه، فهي - والحالة هذه - حالة طبيعية من حالات الحرب، أو من حال الدنيا منذ أقدم الأزمان.

* * *

ولقد بات هذا النوع من العدوان محكوماً بضوابط من الوعي العالمي العام ، بصرف النظر عن موقف دول العالم منه ، ووضعت له - ولو نظرياً - قانون دولي ، ومعاهدة جنيف ، وميثاق الأمم المتحدة ، التي تنظم - ولو نظرياً أعود فاكرر - طبيعة العلاقات الدولية في حالات الحرب ، وحقوق وواجبات الاطراف المتحاربة ، ومواصفات العدوان غير المشروع ، والحرب العادلة ، إلى غير ذلك من نواح اعتبرت

احدى خلاصات تجارب أهل الأرض في تاريخهم خلال القرون القليلة الماضية .

* * *

فإذا كان الغزو قد بات متعذراً بعض الشيء - ولو نظرياً - فإن هناك نوعاً من الغزو غير المرئي ، يتم على مدار الأعوام ، نهاراً وليلاً ، بإصرار ودأب ومثابرة ، دون أن تطاله القوانين الدولية ، والمعاهدات العالمية الا وهو : الغزو الفكري . وما من أمة من الأمم تعرضت للغزو الفكري كما تعرضت الأمة الإسلامية بالذات دون سائر أمم الأرض.

ذلك ان الخصائص المميزة للأمة الاسلامية ، من حيث هي أمة تتبع دين الحق بما فيه من خَيّر التشريع الإلهي بصورة لا تماثلها فيها أية امة ، قد شكلت - باستمرار - عقبة كأداء في وجه المطامع الاستعمارية ، والأهداف الشيوعية ، والمرامي الصهيونية ، وكل هؤلاء كما نعلم حرب على البشرية اعداء للإنسانية ، فكان ان استمرت هجمات الأعداء بذلك الغزو الخطير إذا ما هدأت جبهات الغزو المسلح . . .

ولا مجال هنا للمقارنة ما بين السلاح المكشوف بالحديد والنار ، والغزو المستتر تحت رداء الفكر .

ففي حين يتكبد العدو بسلاحه الأول نفقات طائلة في كل يوم من أيام الغزو المكشوف ، نراه لا ينفق معشار ما

يحتاجه العدوان العسكري على عدوانه الفكري . .

لكن العدوان الفكري ، والغزو الفكري ، ولا أقول الغزو الثقافي ، لأن الثقافة قيمة إنسانية ، ومحصلة جهود نبيلة ، بينما يفتح الميدان آفاقه الواسعة للغزو الفكري الخالي ـ عن عمد ـ من المضمون الثقافي ، المتنكر بأثواب ملونة براقة تسمى مرة « تجديداً » ، وتدعي ـ اخرى ـ «انقطاعاً عن التراث» . كما تطلق عليها اسماء شتى من اسماء المذاهب الفلسفية الشوهاء ، وانتهاء بالنظريات السياسية والاقتصادية الكسيحة .

ومن أعجب العجب ، اننا لا نجد امة من الأمم، ولا شعباً من الشعوب ـ حتى البدائية منها ـ قد ظهرت فيها دعوات الى نفض اليد من التراث كما ظهرت في بعض البلاد العربية ، لدرجة وجدنا معها من يدعو ليس إلى قطع الصلة بالتراث فحسب بل والأخذ بالمستورد من الأفكار ، حتى ولو كان مناقضاً لديننا الإسلامي. حتى ولو كان مناقضاً لتراثنا العريق . حتى ولو كان قد اخفق اخفاقاً ذريعاً في البلاد التي ظهر فيها . ليعرض علينا كي نأخذ به ، وننبذ تراثنا بحجة التجديد والتطوير .

وفي تصوري ان موقفنا من هذا الغزو الفكري الذي يصطنعه ويغذيه اعداء الإسلام وأمة الإسلام يجب ان يقوم على نقاط ثلاث :

الأولى ـ ان كل ما يتعارض مع ديننا وطبيعة مجتمعنا ، ننبذه بدون تردد لأن ديننا هو اساس حياتنا ، ومنه نستمد جذور مجتمعنا . . .

الثانية ـ ان كل دعوة إلى نبذ تراثنا الثقافي هي دعوة باطلة حتى ولو لم تتعارض مع ديننا ، لأن تراثنا هو جزء من حضارتنا ، والحضارة تراث متكامل الحلقات مهما اغرقت في القدم والبعد.

الثالثة ـ ان مراعاتنا ، بمنتهى الدقة ، للنقطتين السابقتين يحدد ـ تلقائياً ـ خطوط الانفتاح الثقافي والفكري على معطيات العصر الحديث ، ويرسم حدودها ومسارها ، فما دام الدين بعيداً عن كل اجتراء ملحد يمسه من قريب أو بعيد . . وما دام التراث سليماً من كل عبث يتناوله بالهدم والتجريح ، فلا شيء يمنع ـ من ثم ـ ان يكون هناك تفاعل مع الحضارات الأخرى يأخذ المفيد ويعطي المفيد ، ويساهم في مواصلة الحضارة الإسلامية لطريقها الطبيعي .

وما احسبها صدفة ـ وهي ليست صدفة بكل تأكيد ـ ان جميع مطايا الغزو الفكري الخطير التي شهدناها منذ مطلع القرن الحالي ، أو ربما منذ غزوة نابليون لمصر ، كانوا اما من غير المسلمين ، أو كانوا من المشبوهين سياسياً واجتماعياً .

ولعلنا نتذكر ان الصهيونية كان لها في مصر ، قبل العام

١٩٤٨م ، نشاط كبير في مجال الانتاج الفكري ، وإنها هي التي انشأت اكثر من مجلة ظاهرها ثقافي ، وباطنها تخريبي هدام ، وقد عهدت بتحريرها الى عدد من كبار الكتاب الذين كانوا ، إذ ذاك ، في حالة من انعدام الوزن بسبب احتكاكهم المفاجىء بالفكر الأوروبي ، وبسبب المبالغ الضخمة التي كانت تدفعها لهم تلك الصحف المشبوهة .

ونتذكر ، أيضاً ، مجلة شعرية كانت تصدر في لبنان ، وكانت تدعو بحماسة تشنجية الى انكار التراث الشعري العربي والأخذ بسخافات « الشعر الحديث » دون ضابط ولا رابط ، ثم تبين ان وكالة الاستخبارات الاميركية (C.I.A) هي التي كانت تمولها .

ومن المؤكد ان مدراء وكالة الاستخبارات الاميركية غير معنيين اطلاقاً بتطوير الشعر العربي (. . .) والدعوة إلى مذاهب عديدة فيه ، ولكنهم ـ وبطبيعة الحال ـ معنيون بالفتك بالفكر العربي والثقافة العربية ، كوسائل للغزو ، لا لغايات ثقافية .

وهناك اذاعات بأكملها تبث في مختلف بلاد العالم باللغة العربية ، وكلها موجهة إلى الأمة العربية ، وهي تتكلف الملايين كل عام ، وتستغرق فترات بثها ساعات طويلة من اليوم ، وما من ريب في ان الدول التي تقف وراء تلك

الاذاعات لا يهمها « تثقيف » الأمة العربية بقدر ما يهمها تسميم افكارها ، وان ما ينفق على هذه الاذاعات انما يدرج في بند النفقات العسكرية ، لأن الغزو الفكري هو تمهيد للغزو العسكري ، وما غايته سوى زعزعة ثقة الأمة بنفسها ، وافقادها مشاعر الاعتزاز بتراثها ، وبث الخور والضعف في فؤادها ، والقائها في متاهات النظريات والاتجاهات المتناقضة ، وصرفها ، وهذا هو الأهم ، عن دينها وتقاليدها .

* * *

فالحرب إذن قائمة وان اختلف السلاح . . .

وإذا كان اثر السلاح العسكري يقتصر على اعداد قليلة ـ مهما كثرت ـ من الناس ، فإن اثر سلاح الغزو الفكري أشد فتكاً وأعظم تأثيراً ، لأنه يهدف إلى النفاذ لضمير الأمة وفؤادها ، ويتناول مصادر قوتها الروحية ، ومنطلق قدراتها الفعلية المحدودة .

أريد أن أقول :

ـ انه لا يجمل بنا ان نستهين بذلك الغزو الذي يتستر وراء براقع «التحديث» و«التجديد» .وكلا التحديث والتجديد منه براء .

ـ وان علينا ، كأفراد أن نحاربه ، في نفس الوقت الذي نحاربه فيه كدول وحكومات . .

ـ وان الأمر ليس بالبساطة التي يبدو عليها، فهو ليس مجرد قصيدة مما يسمى بالشعر الحر ، بأفكار مستوردة ، ولا مجرد نظريات اجتماعية مقتبسة من مفكر غريب ، ولا مجرد فيلم سينمائي يشاهد للتسلية ، ولا مجرد كتاب يخبط فيه مؤلفه ويتخبط بأفكار مصنوعة في أوكار الصهيونية والشيوعية والاستعمار .

ان الأمر لهو أكثر من ذلك، واخطر من ذلك.

انه غزو فكري يتسلل من خلال مسارب كثيرة بوسائل شيطانية . .

انه تمهيد لغزو عسكري يحقق انتصاره بسهولة بعد ان تتضعضع ـ لا سمح الله ـ اوصال الأمة ، وتتبدد ـ لا سمح الله ـ مصادر اشعاعها . .

انه ـ وبكل اختصار ـ غزو خطير .

العمل ... بين أهل القمة وأهل القاعدة

متى يصبح العمل في عالمنا العربي فضيلة مثل الكرامة والشرف ؟

وكيف يمكن أن نتعلّم ونعلّم أبناءنا احترام العمل وحب الإنتاج ؟

وكيف نحس ونؤمن بأن بناء الوطن قضية مشتركة ، ودور الذين يقبعون في القاعدة هو نفس أهل القمة ، سواء بسواء ، الأمانة واحدة ، والمسؤولية مشتركة ؟

وليس ضرورياً أن ينتظر الموظف في الوزارة حتى يصبح وزيراً ليكون أكثر إنتاجاً ، ولا المدرس في المدرسة حتى يصبح مديراً .

ولا الجندي حتى يصبح قائداً .

ولا العامل حتى يصبح رئيساً للشركة .

لا نستطيع ان ننتظر حتى نصبح كلنا وزراء أو مديرين ، أو رؤساء لكي نكون أفضل انتاجاً.

ولا بد أن نحس بأن القدرة على العطاء والإنتاج لا ترتبط بالمرتبة . ولا بالدرجة أو الشهادة ، وإنَّما بالعمل والإخلاص في الأداء ، والرغبة في الإنتاج والعطاء .

ولكن ليت شعري ، متى يصبح العمل عندنا في العالم العربي انتماء ، وعطاء ، وبناء .

ومتى نبدأ في البحث عن طرق أفضل ، ومساهمة أكبر في بناء الوطن ، بصرف النظر عن الشهادة التي نحملها .

ويتبادر إلى الذهن سؤال هام في قضية تخطيط التعليم الجامعي وما بعده ، وهو :

إلى أين تتجه الآلاف من الشباب الذين يتخرّجون في شتّى التخصصات ، بكالوريوس علوم ، ليسانس آداب ، اجتماع ، إعلام ، ماجستير لغة ، دكتوراة إنسانيات ، إلى آخر القائمة ؟ إلى أين يذهب هؤلاء ؟ وهل نستفيد منهم في قطاعات منتجة ؟ وما مدى ارتباط أو ربط كل هذا بعملية التنمية الشاملة التي ننشدها ؟ ولا أعني التنمية الاقتصادية فقط .

وكل هذه علوم مفيدة قطعاً ، ونافعة دون شك ، غير أن المسألة إن سارت بدون تخطيط سليم وتوجيه يضمن التوازن ويرتبط بالأهداف . فسوف نساهم في خلق بطالة مقنعة ، وتتخرج أعداد في حقول لا حاجة لنا بها في هذه المرحلة ،

في وقت نعاني فيه من نقص شديد في مجالات أخرى .

وبالإضافة إلى هذا نكون قد ساهمنا في تضليل أبنائنا ، أو على الأقل لم نساعدهم ونعينهم على حسن الاختيار .

إن حسن التخطيط للتعليم والعناية بالإنسان وتنمية قدراته تساهم في خلق نوع من الولاء والانتماء ، ولهذا تذوب رغبة الفرد في سبيل تحقيق الأهداف والمصلحة العليا للأمة . فلا يسعىٰ الفرد ليكون عضواً بارزاً في المجتمع ، وإنَّما يحرص على أن يكون منتجاً ومفيداً ، ولا يهتم بموقعه في الهرم ، ولكنه يحاول أن يكون أحسن إنتاجاً وأقدر على العطاء في موقعه .

وهذه التجربة اليابانية ماثلة أمامنا ؛ فالفرد الياباني يستمدّ شعوره بالفخر والاعتزاز من إتقانه لعمله ، وليس من موقعه في الوزارة أو الشركة التي يعمل بها ، ولا من شهادته .

« اليابان أسطورة العصر الحديث من حيث التقدم الصناعي والزراعي ، ومن حيث الطفرة التكنولوجية المذهلة ، أصبحت حديث العالم إعجاباً وقلقاً على حد سواء ، سواء بسبب منافسة كل ما هو ياباني من منتجات لمنتجات الدول الأخرى في عقر دارها » .

«هذا التقدم المذهل، وتلك الطفرة الطويلة بعد سنوات

الهزيمة والدمار يـرجع إلى أسبـاب عدة ، منهـا حسن الإدارة ودقة التنظيم واحترام العمل والانضباط ، كـل ذلك في نسيج من حب الوطن والالتزام بحقه على كل مواطن ، والقناعة بما يتقاضاه كل فرد في موقعه . . »[1] .

«ويتصل بهذا موضوع الانتمـاء أو الولاء للمؤسسـة التي يعمل فيها الياباني ، فهو يعتبر نفسه جزءاً منها ولا يتصور نفسه في أي مكان آخر غيرها ، في أمريكا يبحث كـل شخص عن أي عمل آخر في أي مكان يعطيه أجراً أكبر ، ولا يهمه من أمر الشركة التي يعمل فيها إلاَّ ما تعطيـه له من أجـر ، بينما نجـد الياباني يعمل حياته كلها وربما أولاده أيضاً معه ويموتـون في خدمة مصنع واحد ، لا يفكـرون في تغييره ، وبينما في أمريكا إذا سألت طفلاً : ماذا يعمل أبوك ؟ يقول لك عادة : أبي يعمل مهنـدسا أو سـائق جرار أو سمسـاراً ، ولكن الطفـل اليـابـاني سيجيبك : أبي يعمل في شـركة متسـوبيشي أو هيتاشي ، ولا يهم أن يكون هذا الأب هـو رئيس الشركـة أو مجرّد سـائق أو عامل نظافة ، المهم أنه يشعر أنه جزء منها ، وحياتها حياته ، ونجـاحهـا نجـاحـه ، ويكفيـه تعـريفـاً بنفســه أن ينتسب إليها . . . »[2] .

---

(١) تخطيط اليابان للتنمية العلمية ـ أميرة يوسف ـ الأهرام .
(٢) درس من اليابان ـ رجب البنا ـ الأهرام .

ونحن نستـطيع في عـالمنـا العـربي ، دون شـك ، أن نحقق كـل التقدم الـذي ننشده ، دون الحـاجة إلى التضحيـة بقيمنـا ومبادئنـا ، وبدون أن تهتـز موازين حيـاتنا أو ثقتنـا في أنفسنـا ، ونستـطيـع أن نمضي ونتقـدم ، دون أيّ مسـاس بالجوهر .

ولكن القضية الهامة ، هي إلى أين نسير ؟ وكيف نسير ؟ وبمن ؟ وماذا نريد أن نحقق ؟ .

وإنني من الـذين يتهيبـون هـذا الانـدفـاع نحـو التعليم الجامعي وما بعده دون توجيه ، أو ترْشيد ، وأخشىٰ أن ينتهي الأمر إلى ضياع هؤلاء الأبناء ودفعهم إلى سوء التخـطيط لبناء مستقبلهم عنـدمـا تـدخـل في روعهم أن الشهـادة الجـامعيـة ضرورية وحتمية ، ربما لمن يريد أن يأخذ دوره في المجتمع وحظه من الحياة ، حتى إذا ما تخرج اصطدم بالواقع ، وأدرك أن هنـاك فئات كثيـرة تحقق دخلاً أكبـر من دخله وتعيش حياة أفضل ، وأن شهادته لا تعينه على تحسين دخله أو وضعه بل قد تصبح من معوقات حركته بما يحيطها من هالة ووضع اجتماعي لا يعينه على الحركة .

والوطن من الناحية الأخرى يتـأثر كثيـراً بهذا الاتجـاه ، حيث ينـدفع الشبـاب في اتجـاهـات لا تتفق بـالضـرورة مـع متطلّبات النهضـة والتنمية ويـزيدون بـالتالي من حجم القـوىٰ

الضائعة والطاقات المبدّدة ، لأنهم اختاروا مجالات وقطاعات غير منتجة ، ولكنها تنمو على حساب القطاعات المنتجة .

ولهـذا فإن قضيـة التخطيط في التعليم الجـامعي ، وما بعده ، في عالمنا العربي يحتاج إلى عناية كبيرة . . .

فما من شك أنها كارثة قومية أن يتخرّج بعض الشبـاب من الجامعات ولا عمل له غيـر التسكّع للبحث عن وظيفـة ، حتى إذا وجـدها كـان عمله الجلوس على مكتب بدون إنتـاج حقيقي أو بإنتاج متدنٍ دون ذنب ولا جريرة ، ولكنه مثل أمثاله في الوطن العربي الكبير ضحية سوء التخطيط في التعليم . .

ويبقى سؤال مهم وملحّ ، وهو : إذا لم يدخل هؤلاء إلى الجامعة فإلى أين يتجهون ؟ هذه هي القضية الهامة التي يجب مناقشتها بكل أمانة وصراحة وموضوعية .

وإذا لم يحصل الشاب على درجة جامعيـة فكيف يثبت وجوده في هذا المجتمع الذي ألف المظاهر والأبهـة ، وامتلأ « بالأفنديات » كما يقـول الأشقاء في مصـر ، ومن يزوجـه إذا تقدم يصاهر عائلة كـريمة ليتـزوج منها ؟ . ومن يضمن أن لا يصدموه بالسؤال « الميري » التقليدي : الأخ جامعي ؟

إذن القضية . . أكبر من مجـرَّد تغير سـطحي أو افتتـاح معـاهد مهنيـة أو ورش تدريب فـالأمر يتصـل بقضيـة التفكيـر

الاجتماعي ، وسبل التأثير فيه وتغيره ليكون أكثر واقعية وأقرب إلى منطق العصر الذي نعيش فيه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبرز سؤال هام آخر ، عن وظيفة الجامعة ، وما يمكن أن تقدمه للمجتمع وحاجتنا الحقيقية التي نتطلبها ونتوخاها منها ، ثم تقويمنا للإنتاج الفعلي للعاملين فيها ، ومدى ارتباط ذلـك بقضايا المجتمع ، وشؤون التنمية الشاملة .

وإذا تركنا قضية الجامعة ، واتجهنا إلى المعاهد الفنيـة والكليات المتوسطة ، ومعاهد التدريب التي نتطلّع إليها عنـد التفكير في حل يساهم في توجيـه شباب الأمـة نجد مجـالات العمل الأكثر إلحاحاً ، والأدعى أن نتجـه إليها ، فـإن السؤال المهم هـو : كيف يمكن الارتفاع بهـا ودعمهـا ورفـع قيمتهـا العلمية والمعرفية ، ومكانتها وسمعة شهـاداتها ، بحيث يقبـل عليها الشباب دون تخـوّف ، أو تردّد ، أو خشيـة من مقت أو احتقـار ، أو ضيـاع ؟ ، ثم كيف يمكن إعـادة تخـطيط هــذه المعاهد وتوفير الحـوافز التشجيعيـة فيها لضمـان إقبال أحسن وأداء أفضل ونتاج أكمل .

ومن الخـطورة طبعاً أن يفهم بـأن الالتحاق بمثـل هـذه المعاهد انتقـاص من المستوى الاجتمـاعي أو القيمة العلميـة للمتخرج ، وذلك عنـدما نقبـل فقط تلك الفئة التي تتعثـر في دراستهـا ، أو ترفضهـا مجالات الـدراسـة الأخـرى ، بـل من

الواجب التركيز لجعلها نوعاً من أنواع التخصص الذي يعتمد على التطبيق العملي أكثر من اعتماده على الدراسة النظرية البحتة ، ولكنها ليست دراسة متدنية أو « درجة ثانية » كما يقولون .

وعندما أدعو إلى تشجيع هذا النوع من الدراسة فإني لا أعني أبداً صرف النظر عن العلوم النظرية أو الأدبية الأخرى ، لأنها هي الأخرى عامل من عوامل النماء ، ولا بد من إفساح المجال لذوي المواهب لتحقيق طموحاتهم في هذا المجال وفق خطة تعليمية صحيحة تجعل المعادلة في صالح نهضة الأمة ، ونموها ، وتحفظ للفرد كرامته وحريته في اختيار مجال العمل الشريف ، وبصورة تضمن جعل عطائه جزءاً من عملية تحقيق أهدافنا الوطنية والتنموية .

هذا في رأيي أجدىٰ وأكثر نفعاً من ترك الحبل على غاربه ، لأن خطورة ذلك أن يتخرّج ، كما أسلفت ، شباب غير سعداء بالدراسة الجامعية التي انخرطوا فيها ، ويعتريهم خوف وقلق واضطراب ، لأنهم دخلوا كليات ومعاهد لا يعرفون أبعاد مصيرهم فيها ، وتتضاعف خشيتهم كلما اختفى ذلك البريق الذي جذبهم ، وحماس عوائلهم وأصدقائهم الذي دفعهم لهذا الاختبار . وهكذا يسيرون في الطريق الذي قدر لهم أن يسيروا فيه دون اختيار أو تفكير ، وكأنهم لا حولَ لهم ولا قوة ولا قدرة حتى على التراجع ، فضلاً عن التقدم .

سيخرجون إلى حياة عملية ضخمة معقدة وسيدخلون عالماً مثقلاً بالمشاكل وفرص العمل أمامهم قليلة ومشاكل الحياة الراضية والسكن ، وأمامهم عقد لا تحل ، وستواجههم مشاكل أخرى ، وسيضافون إلى جماهير الشباب الذين تخرجوا قبلهم في السنوات السابقة على تخرجهم وسيقفون في طابور الحيرة والمتاعب الطويل .

وبعد قليل سيكونون قد دخلوا في زمرة العاملين العاطلين ، لأنهم يشغلون وظائف ، أي وظائف،وإيرادها لا يسد جزءاً من مطالبهم ، ولكن ليس لهم خيار ، فتلك هي الدنيا وها هي الظروف من حولهم وهم في مكانهم من الطابور وليس أمامهم إلاّ المسير في أعقاب الآخرين .

هؤلاء في غالبيتهم سيتحولون مع الزمن إلى « أنفار » في جيش هائل من الكهول المجاهيل الذين يعتادون الألم وينسون الطموح وتتلاشىٰ من قلوبهم الآمال ، ويصبح جهدهم كله موجهاً إلى الحصول على ضرورات الحياة . هذه صورة للشباب في دولة عربية كبيرة جداً من ناحية تعداد السكان « ٥٠ مليوناً » ، ولكنها تعاني من قضية سوء التخطيط في إعداد القوى العاملة ، حتى بلغَ الأمر حد إقدامها على استيراد فنيين ، من بعض دول الشرق الأقصىٰ مثل الفلبين وتايلاند . .

ولقد استرعت انتباهي تلك الدراسة الجادة التي نشرها

مكتب العمل الدولي بجنيف مؤخراً وقام بإعدادها باحثان من جامعة درهام ببريطانيا .

وقد أوضحت هذه الدراسة أن الهيكل التعليمي في البلاد العربية مبرمج بطريقة يغرس معها في أذهان الطلبة منذ نعومة أظفارهم قيماً تعليمية تشجع الإقبال على التخصصات الدراسية التي تقود إلى الجامعة وتعمل على تثبيط همم أولئك الذين حالت مقدرتهم التحصيلية على اختيار هذه التخصصات كما أوضحت .

ولهذا فإن نسبة كبيرة من الطلاب الذين يتجهون لهذه المعاهد المهنية هم ممَّن فشلوا في الدراسة ، أو ممَّن تعثروا وآثروا السلامة ، وكان الاتجاه إنَّما غذاه شعور بالاحتقار للعمل ، والأشغال اليدوية وهو الذي أدَّى إلى نفور المبرزين من هذه المعاهد ، والاتجاه نحو الجامعة حتى لو انخرطوا في كليات لا تتفق مع ميولهم أو رغباتهم ، إذ أن المهم هو الظهور بالمظهر الاجتماعي الملائم .

وأحسب في النهاية أن القضية مرهونة بعملية التخطيط في التعليم لوطننا العربي ، والتفكير الاجتماعي الذي يملي علينا أوضاعاً لم نعد نملك الخروج منها واتجاهات نسير فيها دون أي قدرة على التغير ، مع أنها اتجاهات ضارة ، وذات نتائج سلبية على حاضر الأمة ومستقبلها .

وبعد ،

فالمسؤولية في رأيي كبيرة ومشتركة ، ولا بد أن نتعلم احترام العمل وحب الإنتاج ويصبح العمل عندنا فضيلة مثل الشرف والكرامة ، وأن نتعاون لكي نصنع شباباً يساهم في نهضة الأمة ويتحمل المسؤولية وتخفف من زحمة أولئك الذين يتسكّعون في سبيل البحث عن وظيفة ، أي وظيفة حتى إذا ما فازَ بها أحدهم بدأ التسكّع من جديد ولكنه متسكّع بكرسي ، وبدون إنتاج حقيقي ، أو بإنتاج متدنٍ ومشوه ، وهو أولاً وأخيراً ضحية سوء التوجيه والتخطيط ، وكبرياء زائفة .

فعلىٰ الشباب إذن أن يحسن اختيار المجال التعليمي المناسب ، الذي يتفق مع قدراته وإمكاناته ويحقق طموحه ، ولكن عليه أيضاً أن يكون واقعياً وينظر إلى المستقبل وما يريد أن يكون عليه ، وموقعه من الإنتاج ؛ لأن الأمة بحاجة إليه ولأنه سيضيع في خضمّ الحياة إذا سارَ خلف خيال أو وهم أو رفاهية عابرة .

وعليه أن لا يتعجّب بعد ذلك إذا رأى أن مهنياً ، سباكاً أو ميكانيكياً ، يكسب أكثر منه ، ويعيش أفضل منه ، فنحن في عصر تتحدد فيه قيمة المرء بمقدار ما يعمل ، وليس بحجم الشهادة التي يحملها ، إلاَّ من كان ذا حظ عظيم !!

ولا أود أن أختم مقالي هذا قبل الإشارة إلى بعض

الجوانب الإيجابية في عالمنا العربي ، في هذا المجال .

فهناك خطوات جادة دون شك ، تدعو إلى التفاؤل في مجال التعليم الفني ، وعندنا في المملكة على وجه الخصوص ، أشعر برغبة صادقة في أن أشد على يد الصديق معالي الدكتور عبد الوهاب عطار وأسرة مؤسسة التعليم الفني والتدريب المهني ، فهذه الخطوات الجادة في مجال تطوير العمل الفني ، وفتح مجالات جديدة والاتجاه إلى الحوافز بأنواعها ، والعناية بالمناطق التي تقع خارج المدن ، وتركيز الجهود فيها ، والخطوات التي تتم في مجال تحسين برامج الدراسة ، وتوفير المرونة السكانية لها ، كلها أمور سوف نجني ثمارها دون شك .

وقد بلغ عدد المتدربين « ٥٥ ألف متدرب وطالب » ، وهناك (٦٠ ألفاً) في المصانع على رأس العمل ، وهناك أمر يدعو إلى الارتياح في مجال الثانوية العامة على وجه الخصوص ، وهو موضوع المدارس الشاملة التي أتاحت لنا مجال خبرة جديدة نشجع فيها الشباب على حسن الاختيار ، ونعوده على تحمّل المسؤولية ، ونقرب له ظروف الدراسة الجامعية ، ونفتح أمامه آفاقاً أخرى ينظر إليها بعين الاحترام ، ونعوده على احترام العمل ، وهذا المنهج الجديد الذي سوف يطرح قريباً سيكون خطوة أخرى إلى الأمام ، وقد تشرفت بالمساهمة في مناقشته في اللجنة العليا لسياسة التعليم .

وهكذا ، نحس بأن الخطوات القادمة ستكون عوناً على مواجهة متطلبات المستقبل بإذن الله . وقد سررت أيضاً ، يوم زرت السودان وسمعت الرئيس السابق جعفر النميري يهتم بموضوع التدريب والعمل ، ويعلن عام ١٩٨٤ عام التدريب ، وهذا يعني أن عالمنا العربي بخير ، وأنه يحاول اختصار الزمن ، وتصحيح الأخطاء ، وتعليم أبناء الأمة احترام العمل ، وهي خطوة في الطريق الصحيح ، وكذلك الوضع في بعض دول المغرب العربي ، وكذا في مصر ، وهي مصدر أساسي للعمالة العربية ، بل واحتياطي للأمة ، فقد بدأت بها خطوات جادة نحو التدريب وحسن التوجيه للعمل ، والأخذ بيد الناشئة نحو مجالات أوسع وأرحب وأكبر عطاءً وأكثر إنتاجاً ، وأعظم مردودا بالنسبة للمواطن والوطن .

وجاء القطاع العربي الخاص ليساهم بدوره ، وسرني أن أرى مجموعة مخلصة من رجال الأعمال ، وجلهم من السعوديين ، يتبنون قضايا التدريب الوطني الإسلامي ، وشاهدت معهداً في قبرص التركية يعنى بقضايا المال والتدريب في مجال المصارف الإسلامية ، ويفتح آفاقاً جديدة للشباب ، وفيها همة كبيرة وإخلاص وفضيلة دون شك.

ويرأس إدارته معالي الصديق المواطن الشيخ أحمد صلاح جمجوم ومجموعة من الرجال المخلصين ، وقد موله

دار المال الإسلامي بمبادرة من سموّ الأمير محمد الفيصل ، وهو صاحب فضل في تبنّي قضايا البنوك الإسلامية ودعم تجربتها الخير ، وجاءت معاهد « إقرا » الجديدة والتي أسّسها الأخ الصديق الشيخ صالح كامل ، لتعليم أبناء المسلمين في الدول الإسلامية الفقيرة ، أو في مناطق الأقلّيات الإسلامية في العالم، لتكمل المسيرة وتثبت أن أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى خير وفي خير فهووأمثاله يبذلون لوجه الله تعالىٰ ، ويدعمون جهود الحكومات المخلصة ، وأحسب أن تجربة معاهد « إقرا » ستكون رائدة في مجال تعليم أبناء المسلمين التعليم المهني والفني ، وهي دون شك عمل من أعمال البر في الإسلام ، يأخذ بيد الناشئة نحو حياة أفضل وعمل أكرم والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

■ كلمة طيبة . .

يعلمنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أفضل ما يأكله الفرد المسلم هو ما نتجَ من عمل يديه ، وكان عليه الصلاة والسلام القدوة في العمل يحلب شاته ويخصف نعله ، ويساعد أهله ويعلمنا أن العمل شرف وكرامة ورجولة .

« متى يصبح العمل عندنا في العالم العربي فضيلة مثل الشرف والكرامة ؟ ومتى نتعلم ونعلم أبناءنا حب العمل والرغبة في الإنتاج ؟

سؤالان هامان أحاول الإجابة عليهما .

أولاً : هل الامتحانات في المدارس ، والجامعات وسيلة تقويم أم إحصاء تحصيل ؟

ثانياً : هل عدد السنوات الدراسية هو المعيار الأساسي أو الوحيد الذي نحكم به على مستوى تحصيل الدارس أو المتدرّب ، وبالتالي معادلة هذا المستوى بمثيله أو شبيهه في مجال آخر ؟

وأحسب أن الذين يتجهون إلى جعل الامتحانات وسائل إحصاء وحساباً دقيقاً لتحصيل الطلاب ، يساهمون في تكريس عملية الحفظ والاستظهار ، ويدخلون في روع طلابهم وطالباتهم أن من يحفظ أكثر ويتذكر أكثر هو الأفضل دائماً في

ويهدمون فكرة الحوار والمناقشة ، وإبراز المواهب لأن الطلاب،
ويهدمون فكرة الحوار والمناقشة ، وإبراز المواهب لأن الطلاب أي طالب ، يصبح مرغماً على عملية الحفظ إذا أرادَ التفوّق أو حتى النجاح ، ويتدرّج معه هذا الشعور الذي يؤثر تأثيراً سلبياً على طموحه وقدراته الشخصية ، وربما أثّر حتى على سلوكه النفسي .

ومن المؤسف أن المدافعين عن فكرة الامتحان ، بهذه الطرق العقيمة ، يغفلون عن حقيقة مرة ، وهي أن أستاذ المادة نفسه ، لو قدر له أن يجلس على مقعد الامتحان وقام

زمـلاؤه ، أو حتى الـطلاب ، بـوضـع امتحـان لـه في نفس المـواد ، وبصورة مفـاجئة ، فـإنـه لن يحصـل على درجـات « مشرفة » .

وقد تمَّ إجراء تجربة كهذه ؛ فقد حـدث في أمريكـا أن ازدادت حدة الهجوم على النظام التعليمي وتعرَّض المدرسون لحملة تحت شعـار سـوء مستـواهم وتمَّ عقـد امتحـانـات للمدرسين .

« ولقد فشل ٢٦٪ من المـدرسين الذين حضـروا امتحان قياس القدرات في الحصول على الحد الأدنىٰ لنسبة النجاح » .

ومـع بدايـة عقد الامتحـان ارتفعت أصوات المـدرسين بشكاوى تماثل شكاوى الطلاب التي يتلقونها . وتقول مدرسة اللغة الإنجليزية « بابرا برجـور » كان الامتحـان محاطـاً بمناخ قاتم مثير للأعصاب .

الطريف في الموضوع أن الامتحان قد حوَّل المدرسين بكل وقارهم إلى طلبة مشاغبين ، فأصبحوا يتفننـون في عمل حيـل لمضايقـة المحاضـرين الذين يعـدونهم لتلقّي الامتحان ويتبادلون الكشاكيل ، بل ويغشون في الامتحان ، وعلى سبيل المثـال في أحد الامتحـانات « حضـر ٣٢٠٠ مدرّس ، ألغيت امتحـانـات ٢٠٪ منهـم بسـبب الـغش ، ورسب ٤٤٪ مـن الحاضرين في اختبـارات القراءة، و٤٦٪ في الحسـاب ، هذا

بـالإضـافـة إلى ٢٦٪ لم يحققـوا الحـد الأدنى المـطلوب للنجاح »[1] .

هذا ما حصل في أمريكا ، فماذا يحدث لو أجريت هذه الامتحانات لبعض مدرّسي اليوم في عالمنا العربي ؟

وهذا يدل بوضوح على أن مفهوم الامتحانات يجب أن ينطلق من مفهوم التقويم ، والرغبة في التوجيـه والتعرّف على مـدى تحصيل الـطلاب ، وليس تخـويفهم وإرهـابهم ، وبثّ الذعر في نفوسهم لأن ذلك يؤثّر في الصحة النفسيـة للطلاب وقد يؤدّي إلى آثار سلبية . . ونتائج عكسية تمـاماً لمـا يتوخّـاه المخططون للتعليم .

إن العملية التعليمية أصبح لها أهـداف أكبر من مجـرَّد تلقين التلميـذ مجموعـة من المعارف ، أو إكسـابـه كميـة من المعلومات التي قد ينساها مع الزمن .

وذلك أن التعليم اليوم هو عملية مساعدة الـطلاب على أن يتعلموا ، ويبحثوا عن كل ما يـريدون ، وأن تكـون لديهم القدرة على تجديد معلوماتهم وزيـادتها . فـالتعليم هو عمليـة تربية مستمرة ، كما يقول خبراء التعليم ، لم يعد هدف التعليم تحفيظ المعلومات بقدر مـا أصبحت وظيفته إكسـاب الدارس

---

(١) تجربة امتحان المدرسين في أمريكا ـ سناء صبحة ـ الأهرام ص ١٩ .

مهـارات تساعـده على تعليم نفسه بنفسـه مثل طـرق التفكيـر المختلفـة ، والمرونـة الفكريـة ، والقدرة على التغيـر والميل للبحث وعـادات القراءة ، وبـالتالي تتغيـر وظيفة التقـويم من قيـاس حفظ الـطالب للمعلومـات وتـذكـرهـا إلى قيـاس تلك المهارات الفكرية السالفة[1].

فالامتحان بالمفهوم الجديد هو قياس لنمو الفرد في شتّى المجـالات ، ولـذلـك فـإن طبيعـة الأسئلة يجب أن تتغيـر ، وظروف الرهبة والخوف يجب أن تزول .

ولا بد أن تشتمل الأسئلة على أنـواع تساهم في قيـاس الـمهـارات والاتـجـاهـات ، وتسـعىٰ . . لـلتعـرف عـلى الإمكـانـات ، والإبـداعـات لـدى الـطلاب ، وكشف طـرق تفكيرهم وميولهم ، وقد كنّا نـدخل امتحـانات أثنـاء الدراسـة العليا في أمريكا وتوضع أمامنا الكتب ، ولا يحال بيننا وبين أي ورقـة نـدخلهـا ، لأن الهـدف هـو تقـويم الـطلاب وليس تعجيزهم ، وبعض الامتحانـات كانت تعـطىٰ لنا في المنـازل لنفس الأسباب .

وهكذا يتّضح أن النظرة الصحيحة للامتحانات يجب أن تنـطلق من مفهـوم أنهـا تقـويم مستمـر ، ومتـابعـة لتحصيـل

(١) الامتحانات . . وهل نعيد النظر فيها ـ ناجي الطحاوي ـ كلية التربية جامعة القاهرة نفس المرجع .

الطالب ، وتلمس لقدراته وإبداعـه ، وهذا لا يتم إلاّ بـوعي ومسؤولية ، وأمانة من قبل المدرس الذي يريد أن يقوم طلابه ليـأخذ بيـدهم نحو مستـويات أفضـل ، ويتحسس إمكانـاتهم وقـدراتهم ليعينهم على تحصيل أفضـل ويفتـح أمـامهم آفـاق الحياة الواسعـة ، ليدخلوا إليهـا من غير خـوف ولا خجل ولا وجـل ، ويُنمي فيهم الشجاعـة على الحوار ، والـرغبة في أن ينهلوا من مناهل العلم بـطرق أصوليـة . . أساسهـا المحاولـة والشجـاعة ، والبحث ، والصـدق والحـوار ، فيتخـرّج هؤلاء بعقول نيّرة ، وأخلاق سوية غير مشـوهين من الداخـل ، وغير متهيبين من مـواجهة المسؤوليـات ؛ فهي عندهم أمـر يـواجـه بالشجاعة والمسؤولية ، وهـذا أفضل بكثيـر من تخريـج جيل متـردد متهيب ، يـردد في بـلاهـة مجمـوعـة من الأرقـام والإحصاءات أو يروي كتباً حفظها عن ظهر قلب ، حتى إذا ما واجهته مسؤوليات الحياة أسقط في يده، خصوصاً عندما يكتشف أنهـا لا تدخـل ضمن مجموعـة الـدروس التي استحفـظهـا ، فيضيع في خضمّ الحياة أو يولي هارباً ينزوي في ركن يستعيش ويقتات فيه ، وتخسر الأمة فرداً كان من الممكن أن يكون أكثر إنتاجاً ، وأصلح لعملية البناء .

ولهـذا فأنـا ممَّن لا يستهيبون بعمليـة الامتحـانـات بـل وأعتبرها قضية هامـة في العملية التعليميـة ، والمسألـة ليست مسألة امتحان في آخر العام أو امتحانات فصلية، أو توزيعاً لعدد

مـرات الامتحـان ، ولكنهـا الفكـرة والمنهـج والنـظرة إلى الامتحان ، من قبل المخططين للتعليم والمدرسين والأهـل ، فكـل هؤلاء يساهمـون في إشاعـة الرعب والـرهبة في نفـوس الطلاب عندما تكون فكرتهم خاطئـة عن الامتحان ، وكم من مدرسين ساهموا في عمليات التسرّب، وكم من عوائـل أخذت بيـد أبنـائهـا إلى فشـل ذريـع بسبب ذلـك الجـو المـرعب والاحتيـاطيات غيـر العـاديـة التي تتخـذ عنـد حلول مـواعيـد الامتحان وشحذ الهمم ، واستنخـاء المروءة ، ووضـع سمعة العائلة في الميزان .

وللأسف أن كل هذه الاجراءات، غير الضرورية، أثبتت أنها تؤدي إلى نتائجه عكسية، ومع ذلك لم تتعلم هذه الفئات ، لأن القضيـة، قضيـة وعي وإدراك لمفهـوم الامتحانات ، ولا بد أن نتعلم جميعاً أنها وسائل تقويم وليست إحصاء تحصيل أو إثبات حفظ ، فنحن نصنع أجيالاً تفكر ولا ندرب ببغاءات تردد .

ويبقى السؤال الثاني ، حول عدد السنوات وعـلاقتها ، هل هي المعيار الأساسي للتحصيل والفهم ، وبالتالي القـدرة العلمية ؟

وأنـا من الذين يؤمنـون بأن حسـاب القـدرة العلميـة أو التحصيل بعدد السنوات ، هو حسـاب غير دقيق ولا واقعي ،

وها نحن نعيش التجربة الجديـدة في جامعـاتنا التي كـان لي شـرف الخدمـة في إدارة أكثر من ثـلاث منها ، وشـاء الله أن ندخل فكرة نظام الساعات في وقت كان يتهيبه الكثيرون ، بعد أن كان النظام السائد هو نظام السنوات ، وها نحن نرى شباباً يتخرّجون دون إتمام السنوات الأربع وبعضهم قد يتجاوزها ، تبعاً لقدراته وإمكاناته ، ولهذا ، فإن حسـاب التحصيل بعـدد السنوات غير عادل . أقول هـذا وفي ذهني موضـوع المعاهـد الخـاصـة بـالتعليم الفني والمهني ، والتي نصـرّ في كثيـر من الأحيان عندما نعادل شهاداتها بشهادات الدراسة العاديـة ، أن نضع في الاعتبار عدد السنوات ، مع أن التحصيلين مختلفان تماماً وكل تحصيل مرتبط بهدف وقضية ، والمحصلة الحقيقية هي القدرة النهائية لكل متخرج على أداء العمل بالصورة الأمثل والحكم الحقيقي ، هو الإنتاج الذي ترتب على القدرة وليس عدد السنوات التي قضاها في مقاعد الدرس أو المعمل.

إن من الـواجب تكريم هؤلاء الـذين يتجهون إلى هـذا النوع العملي من الدراسة ، وتشجيعهم وإشعارهم أننا بحاجة إليهم ، وأننـا نقدر العمـل ونحتـرمـه ، ولـذلـك فنحن نقـوّم دراستهم على أسـاس الإنتاج الـذي نحن بحاجـة إليه ، وهم قـادرون على أدائـه ، وعلينـا أن نعـطيهم نفس ميـزات من يسـاويهم في العمـل ، وفي تحقيق الهـدف وليس في عـدد السنوات .

فإذا تخرَّج أبناؤنا من المعاهد الفنية ، وأتمّوا أعمالهم بنجاح ، واستغرق ذلك ثلاث سنوات ، أو دونها قليلاً ، فإن من الواجب أن نعطيهم كادراً يضعهُم في مصاف الجامعيين ، وأن لا نلتفت لعدد السنوات ، وبهذا نبني رجالاً يتحملون مسؤولية العمل الذي نحن مقبلون عليه ، والتنمية التي نحن بصددها ، والله من وراء القصد .

رجل من القريتين عظيم

تحول الكبرياء والغطرسة دون رؤية صاحبهما للحقيقة ، وتحجب عنه الرؤيا ، وتمنعه من اتباع الحق ، بل وقد تأخذ بيده نحو الهلاك لمجرد العناد والمكابرة ، فلا هو بقادر على رؤية الحق حقاً ، ولا هو بمتبعه ، ولذلك ، كان من خير الدعاء :

« اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » .

وقصة الكبر والتكبّر والاستكبار بالنسبة للإنسان قديمة قدم يوم خلقه ، فهي تبدأ يوم أمر الله سبحانه وتعالىٰ الملائكة أن يسجدوا لآدم ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلاَّ إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين**﴾[1] .

---

(١) سورة صّ ، الآيات ٧٣ ـ ٧٨ .

وقد عرف إبليس حجم هذه الخطيئة وخطرها فأغرى بها الإنسان . غريمه ـ ولا يزال يغريه وسيظل إلى يوم يبعثون ، فقد أقسم بعزة الله قائلاً : ﴿**فبعزتك لأغوينَّهم أجميعن * إلَّا عبادك منهم المخلصين**﴾(١) .

لذلك حذر الله من الكبرياء والغطرسة .

«الكبرياء ردائي فمن تردَّى به قصمته» .

وهذه صناديد قريش التي شهدَ لها العرب بالحكمة والعقل ، والقيادة في الرأي . حالت الكبرياء والغطرسة دونهم ودون رؤية الحقيقة فرغم معرفتهم بصدقه وأمانته ، فقد كذَّبوه وعادوه وحاربوه وآثروا الغواية على الهداية ، والضلال على الهدىٰ .

والفساد على الصلاح .

وأنكروا الحق وهم له عارفون .

واستمروا في التكبّر والغطرسة والعناد حتى أوردتهم موارد الهلاك ، كانوا يعرفون عظمة محمد ، خلقاً وأصلاً ونسباً واستقامة .

وكانوا يدركون أنه لا يوزن به رجل من قريش إلَّا رجح براً وفضلاً ونبلاً .

---

(١) سورة صٓ ، الآيات ٨٢ و ٨٣ .

فهو من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصر مضر وأهله حضنة بيت الله وسُوّاس حرمه ومع ذلك أعمتهم الكبرياء والغطرسة عن رؤية الحقيقة .

وظلوا على أصنامهم عاكفين ، وكان ما يقلقهم أن النبوّة جاءت في شخصية محمد ، وأن القرآن قد أُنزل عليه ، وكانوا يودون أن لو أنزل على ﴿ **رجل من القريتين عظيم**﴾(١) .

وهكذا رأوا العظمة بمقاييسهم ، ومعاييرهم وكذلك سولت لهم أنفسهم التي امتلأت حسداً وكبرياءاً واستعلاءاً وغطرسة ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾(١) .

روى البيهقي بالسند عن أبي إسحاق قال : مر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم على أبي جهل وأبي سفيان ، وهما جالسان فقال أبو جهل : هذا نبيكم يا بني عبد شمس . قال أبو سفيان : وتعجب أن يكون منا نبي . فالنبي يكون فيمن أقلّ منا وأذلّ فقال أبو جهل : اعجب أن يخرج غلام من بين شيوخ نبياً ، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يسمع ، فأتاهما فقال : « أما أنت أبا سفيان ، فما لله ورسوله غضبت ، ولكنك حميت للأصل ، وأما أنت يا أبا الحكم ، فوَالله لتضحكنَّ قليلاً

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣١ .

ولتبكين كثيراً ، فقال : بئسما تعدني يا ابن أخي من نبوّتك» .

﴿ **وإذا رأوك أن يتخذونك إلاَّ هزواً . . أهذا الذي بعث الله رسولاً** ﴾[1] . . كانوا يرونه صلَّى الله عليه وسلَّم يجلس إلى أصحابه من المستضعفين في المسجد أمثال صهيب . . وعمّار وخباب وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، فتأبىٰ أنفسهم المتكبرة أن تؤمن بأن هؤلاء قد منَّ الله عليهم بالهداية ولهذا كان سؤالهم : « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » ، وهكذا سوَّلت لهم أنفسهم أن الرسالة والهداية لا تنزل إلاَّ على أغنياء أو عظماء بمعاييرهم ودفعهم ذلك إلى تكذيبه ، وهم يعرفون صدقه .

وروى الإمام أحمد بسنده : عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿ **وانذر عشيرتك الأقربين** ﴾[2] أتى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصفا فصعد عليه ثم نادىٰ يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يا بني عبد المطلب يا بني فهر ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغيّر عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب ، لعنه الله ، تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلاَّ لهذا ، وأنزل الله عزَّ

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٠ . (٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

وجلّ : ﴿ **تبَّت يدا أبي لهبٍ وتبّ** ﴾[1] أخرجه البخاري ومسلم .

ولا جدال في أن أبا الحكم عمرو بن هشام وأباجهل، كما سماه المسلمون ، كان أعنف وأحمق معارضي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقد ركبَ الشيطان رأسه ووضع على عينيه غشاوة من الكبرياء فعمي عن رؤية الحقيقة ، وعندما سأله أصحابه عن رأيه بعد أن سمع القرآن سراً ، قال حانقاً : « لقد تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، حملوا فحملنا ، أعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنّا كفرسي رهان قالوا : « منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ واللات لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه أبداً » . . وهكذا رفض الحق تكبراً واستعلاءاً ومفاخرة ، وطلب جاه .

ويأتي بعد أبي جهل ، على سلَّم الكبر والتكبر والعجرفة والاستكبار والغرور ومعاداة الإسلام والاجتهاد في إيذاء الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم وإيذاء أصحابه ، النضر بن الحارث ، أو شيطان قريش ، كما كانوا يسمونه .

يقول ابن هشام في « ١/٢٩٨» : وكان النضر قد سافرَ إلى الحيرة وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس وأساطير رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

(١) سورة الحسد ، الآية ١ .

مجلساً فذكر الله وحذَّر أصحابه ما أصاب الأقوام من قبلهم من نقمة ، خلفه النضر في مجلسه ثم قال: «أنا والله يا معشر قريش أحسن منه حديثاً فهلمَّ إلي فأنا أحدثكم عن ملوك فارس وأروي لكم أخبار رستم واسفنديار » ثم يقول : « بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟ » .

وقال ابن إسحٰق : وكان عباس رضي الله عنهما يقول : « فيما بلغني نزل فيه ثماني آيات من القرآن مختتمة يقول الله عزَّ وجلّ ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾[1] .

كان محمد صلَّى الله عليه وسلَّم المثل للكمال الإنساني في أبدع صوره والتكوين البشري في أجمل أوضاعه، وكيف لا وقد اختاره العليم الخبير ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين وحامل الرسالة الأخيرة إلى الناس كافة ، وقد أرسله إلى الدنيا بشيراً ونذيراً وهادياً ومرشداً وسراجاً منيراً وداعياً إلى الله بالحق وجعله رحمة للعالمين وشفيعاً يوم الدين ثم قال فيه : ﴿ **وإنَّك لعلى خلقٍ عظيم** ﴾[2] .

ولقد شاءَ الله جلَّ جلاله أن ينتصر الحق على الباطل ويدمغه فإذا هو زاهق .

---

(١) سورة القلم ، الآية ١٥ .

(٢) سورة القلم ، الآية ٤ .

كل أولئك الذين تكبروا .
والذين كذبوا .
والذين تعالوا .

والذين رفضوا نبوّة هذا النبي الكريم ، لمجرد الكبرياء والغرطسة ، شاء الله أن ينصره عليهم ويؤيّده ، وشاء سبحانه أن يلقى هؤلاء مصارعهم ، وهم في قمة كبريائهم فقد هلك أبو جهل يوم بدر ، وكذلك هلك النضر بن الحارث وغيرهما من سادة قريش المتكبرين الطغاة المتغطرسين .

وما أروعها من صورة أن يقف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بعد انتصار المسلمين في بدر ، على القليب مخاطباً جثث القتلىٰ قائلاً : « يا أهل القليب ، بئس عشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وأواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

وروي أنه صلَّى الله عليه وسلَّم نادىٰ طائفة من زعماء الشرك والشر والتكبّر والغطرسة بأسمائهم ثم قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

فقال الحاضرون : يا رسول الله أتنادي قوماً قد جيفوا؟» فقال عليه أزكىٰ الصلاة والسلام : « ما أنتم بأسمع

لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » .

وهكـذا نالـوا جزاءتكبرهم وغرورهم وحصـدوا نتـائج صلفهم وغطرستهم مع أن القرآن نزل بلغتهم وفي بلدهم ولـو قدروا هذا المعنى الجليل لما تكبـروا ولا اغترّوا أو تغـطرسوا ولكنهم فعلوا ما فعله الشيطان يـوم أمره الله سبحـانه وتعـالىٰ بالسجود لآدم فأبىٰ واستكبر وقال : » أناخيرمنه . .

ليت شعري هل نتعلم في هذا الشهر الكريم أن نتواضع وأن نعلم أبنـاءنا حب التـواضع ونعـرفهم أن من تـواضـعَ لله رفعه .

الحيـــاة بعد الموت

وتثار اليوم قضية قديمة جديدة في الغرب ، بعد صدور كتاب « الحياة بعد الحياة » ، أو كتاب رايموند مودي وهو الذي سمّاه « رجوع الروح » وصدر قبل عدة سنوات .

والقضية هي هل من حياة بعد الحياة الدنيا بالفعل ؟ أم لا ؟ ، وهناك فئة تنكر هذه الحيـاة بصورة نهـائية ، وتـرى أن نهاية الحياة هي الموت ولا حياة بعد ذلك إطلاقاً ، ولهذا فقد جاء الكتاب ليشكـل صدمـة كبيرة لهؤلاء ، حيث أوضـح هذا الطبيب من خلال الدراسة التي أجراها ، والمقابلات التي قام بها مع عدد كبير من الناس الذين ماتوا فعلاً موتـاً ؟طبياً،كمـا سماه ، أي أن الأطباء قرروا أنهم قد ماتوا ، ثم أجريت لهم إسعـافات عـاجلة ، عادوا بعـدها إلى الحيـاة ، وتحدثـوا عن تجاربهم أثناء هذه الفترة التي كانوا فيها في عداد الموتى ، ماذا رأوا ؟ كيف كانت حالتهم ، ومشاعرهم ؟؟

وقد تباينت التجارب والظروف التي مرّ بها هؤلاء الذين

تمت الدراسة عنهم أو معهم ، فمنهم من رأى أنه انتقل إلى عالم كهف مظلم قاتم ، ومنهم من رأى أنه انتقل إلى أماكن جميلة، وبعضهم سمع أصواتاً مزعجة مخيفة تتحدث معهم ، والبعض الآخر سمع أصواتاً جميلة مريحة للنفس.

بعضهم رأى انه ينتقل إلى جسم نوراني ، ويتكلم أيضاً مع كائنات نورانية.

بعضهم روى كيف تعرض لوابل من الاسئلة عن حياته وعن أعماله في الدنيا ، وقابل ملائكة تسأله وتحقق عن كل ما قام به من أعمال كان قد نسيها فعلاً .

وهناك قضية استرعت الانتباه ، وهي أن الذين حاولوا الانتحار ثم أنقذوا اتفقت رواياتهم على أنهم انتقلوا إلى عالم كئيب مظلم ومخيف ، وهذا أمر سوف أعود إليه في نهاية المقال إن شاء الله .

وهذا الكتاب أثار ضجة كما أسلفت ، لأنه صدم الفئات التي ترفض فكرة اليوم الآخر ، ولا تعترف ولا تؤمن باليوم الآخر ، ولا بالحساب أو العقاب ، ناهيك عن عذاب القبر ، ولذلك فإن هذه الروايات التي ذكرها المؤلف، ودقق في صحتها، بل أنه قد استدل على مدى صدق الروايات بمجموعة من الحالات ولذلك فإن هذه الروايات التي ذكرها المؤلف ، ودقق في صحتها ، بل أنه قد استدل على مدى صدق الروايات

بمجموعة من الحالات التي وصف بها الشخص الميت ، وظروف الوفاة الحقيقية ثم طريقة العلاج، والمكان الذي تم العلاج فيه، والاطباء الذين قاموا بعمليات الاسعاف التي أعادت المريض إلى الحياة بعد أن شارف على الوفاة ، أو توفي طبياً كما قال .

وقد كنت من الذين ناقشوا هذا الكتاب ، ونشرت بعض مقالات عنه في ذلك الوقت ، وكان الصديق معالي الشيخ هشام ناظر ، كعادته في ذلك الوقت ، يمد اصدقاءه بنسخ من احدث الكتب التي صدرت ، وكان هو الذي اطلعني على الكتاب ، ثم ترجم الكتاب إلى لغات عدة ، وعودتي اليوم إلى هذا الموضوع تأتي بعد أن التقيت بمجموعة من السواح في قرية ألمانية في جنوب المانيا يصر أهلها على أنها مدينة ، وهي في الحقيقة جميلة ورائعة ، تقع على بحيرة « تيجنزيه » أو « تيكانزيه »،وقد ضمت المجموعة بعض رجال الدين المسيحي ، وجرى الحديث عن الديانات المختلفة ، وتشعب إلى موضوع « القيامة »واليوم الآخر ، وطبعاً كان هناك اتفاق تام من قبل الجميع على وجود حياة أخرى هي اليوم الآخر ، وأن الإنسان يلقى جزاءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ما عدا شابين كانا من ضمن الجلوس أوضحا أنهما لا يؤمنان بحياة اخرى ، واستقبل القساوسة رأيهما بصدر رحب ، وبدأت مناقشة مثيرة ومثمرة .

وقال أحد الشابين أنه قد اوصى بأن يحرق جسده وينثر رماداً .

وسألته : لماذا ؟ فقال : حتى لا أتعرض لهذه الخرافات التي تتحدثون عنها من ناحية الحساب او العذاب .

قلت: إذن أنت تخاف من ذلك؟

قال : لا ، ولكني لا أريد أن أتعرض له . قلت : إذن عندك اعتقاد بأنك سوف تلقى حساباً من نوع ما .

قال : لا اعتقد ، ولكنه احتمال ، أريد أن لا أقابله ، فلذلك أوصيت بأن يحرق جسمي ، وينثر الرمال فأنتهي من هذه المشكلة بصورة نهائية .

قلت : ولكن الذي خلقك قادر على جمع هذا الرماد مرة أخرى . وانبرى الشاب في عصبية واضحة ، وقال : إنكم تفترضون إفتراضات ثم تجعلونها حقيقة ، من قال لك أنه خلقني ؟

وقال له السيد / مارتن ـ وهو أحد القساوسة الجلوس ـ إذن من اوجدك ؟ !

ـ الطبيعة .

ـ حسناً ، هذه التي تسميها الطبيعة . . نقول نحن إنها الإله ، الرب ، وأنها قادرة على إعادتك إلى الحياة في نفس الصورة وبنفس الطريقة التي أوجدتك بها من العدم .

ووقف الشاب مستأذناً بالانصراف وقال :

إن هذه الأسئلة ترهقني ، ولا أرتاح لها ، إنني لا أعرف الإله الذي تحدثونني عنه ، إلا من بعض أصدقائي ، الذين لأهلهم صلة عمل بالكنيسة .

وسأله القسيس الآخر الذي يجلس بجواري :

ـ وانت ألم تذهب إلى الكنيسة ؟

ـ لا ، لم ادخل كنيسة في حياتي .

ـ ووالدك ، ووالدتك ، ألم يذهبا إلى الكنيسة ؟

ـ كلا ، وهما كذلك لا يرتاحا لرجال الدين .

وأحاط بالجميع صمت مطبق للحظات ، وأخذ القساوسة ينظرون إلى بعضهم نظرات ذات معنى .

وتذكرت عندها قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم :

« يولد الإنسان على الفطرة ، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» . ـ(الحديث) .

وقلت في نفسي : ليت شعري ! كم من المسلمين اليوم يتعهدون أبناؤهم ، يصطحبونهم إلى المساجد ويجلسون إليهم ، يقرأون معهم القرآن أويتدارسون أحاديث ، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، فيوثقون صلتهم بالله وبالرسول ، ويغرسون في أنفسهم محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويحيون بذلك الجذوة الإيمانية

في نفوسهم ويأخذون بأيديهم من الفطرة إلى عمق الإيمان . .

■■ « كلمة »

من أراد أن يكـون له أبنـاء ، فليـربِّ أبنـاءه ويتعهـدهم ويـرعـاهم ليكـونـوا ابنـاءه ، لأن الابنـاء لا ينشـأون بمجـرد الانتساب . .

هو استعراق .... ولكن

الاسلام جاء ليخلص الانسـانية من تعـدد الانتماءات ، ويـرجع بهـا إلى انتماء واحـد هو : بنـوتنا جميعـاً لآدم عليـه السلام .

أطلعت على المقـالة القيّمـة التي كتبها أستـاذ الجيل/ محمـد حسين زيدان وعلق فيهـا على مقـالـة الأستـاذ الكبيـر المؤرخ حسين مؤنس التي كتبها في مجلة اكتوبـر ، ثم قرأت التعليق الملطف الـذي كتبه المهنـدس الأستاذ محمـد سعيـد فارسي ، وحاول فيه أن يعطر الجو بين الكاتبين الكبيرين بعطر الـود والصداقة .

وأول مـا أسجله هو أننـا ننـظر إلى الأُستـاذين الجليلين محمـد حسين زيدان والـدكتـور/ حسين مؤنس بعيـون الحب والاحترام والتقدير ، فكلاهما قد مـلأ فراغـاً في دنيا الأدب ، واحتـل مكانـة مرمـوقة فيهـا . ولكل منهمـا أثره في تصحيـح المفـاهيم وتنقية الأجـواء الثقـافيـة ، ولـه في عـالم النـاطقين بالضاد ، وخصوصاً في هذه البلاد ، جمهور كبير .

وما كتبه الدكتور حسين مؤنس . كان استعراضاً تاريخياً استند فيه إلى المراجع الموثوق بها وفي مقدمتها الجبرتي وعبد الرحمن الرافعي ، وقد تناول فيها تصرفات المماليك ، اولئك العبيد الأرقاء الذين اشتراهم الحكام ليكوِّنوا منهم فرقاً عسكرية خاصة بأيام السلم ، تضاف إلى الجيوش ايام الحرب ، فكانت النتيجة أن صاروا هم الإدارة العسكرية كلها في مصر والشام ، واثبتوا جدارة وشجاعة في المعارك جعلتهم في أكبر المناصب ، ومن هذه المناصب قفزوا إلى الحكم ، فكان منهم الحاكم الذي حكم بما يرضي الله ورسوله ، وأحسن إلى الشعب ، ورفع راية الإسلام عالياً ، وكان منهم الحاكم الفاسد الذي حكم بأهوائه ونزعاته واستبد بالشعب ، وأساء إلى الإسلام. ويجب الا نغفل هنا أنهم وان كانوا مملوكين الا ان وسيلة تملكهم كان اغلبها اغتصاباً لاصول سامية في بيئاتها عريقة في مجتمعاتها ، فهم حين يتطاولون الى سيطرة ملك فإنما يلبّون ما يصرخ في دمائهم من سيادة أصول .

كان هناك مماليك ابطال قاوموا التتار وسجلوا العديد من الانتصارات في ميادين الحرب والقتال ، وكان بها مماليك ابطال رفعوا راية العلم وخدموا بإخلاص في مختلف مجالاته وعلى رأسهم الأمير عبد الرحمن كتخدا ، الذي رمم عمارة الأزهر ، وأضاف إلى مبانيه ، واوقف ثروته

الواسعة على طلابه وشيوخه ، ولا تزال مباني الأزهر الشريف تحمل اسمه حتى اليوم مع التكريم والامتنان.

ولكن هذا لا يمنع من وجود مماليك كانوا أسوأ مثل ، فقد أكلوا خير مصر واستفادوا بسواعد أبنائها في إقامة حكمهم ، ثم أساءوا إلى مصر وإلى أبنائها أكبر الاساءات ، ولم تكن عندهم الشجاعة او العدل او الاخلاص أو الحكمة وسداد الرأي ، ولم يرتفعوا عن مستواهم المملوكي ، بل ان المماليك عندما أحسوا بزوال الخطر الصليبي بعد فشل الحملة الصليبية السابعة ، حولوا بأسهم إلى الشعب الذي عانى منهم الأمرين ولم ينقذه من ظلمهم إلا الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقد أفتى هذا العالم الجليل ، ان المماليك عبيد ارقاء لم يحرروا ولهذا فإنهم لا يصلحون لمنصب الحكم والقيادة ، فقاوموه وحاربوه بمختلف الوسائل . ولكن الله نصره عليهم وأيده باتحاد كافة طبقات الشعب ووقوفهم خلفه ، فاضطر المماليك للخضوع لأمره ، فباعهم في الأسواق ووضع أثمانهم في بيت المال ، وبذلك أصبحوا احراراً فعادوا إلى ما كانوا فيه من مناصب ووظائف ومارسوا حياتهم العادية ، ولكن بغير ظلم ولا استبداد ، فقد أدبتهم هذه الحركة المباركة ، وحدَّت من طغيانهم وأرغمتهم على احترام الشعب المصري فعاشوا معه إخواناً متعاونين . ومهما كان الأمر فإن سيئات هؤلاء المماليك

قد انماعت في خضم الحسنات التي قدمها أولئك المماليك الذين اعتبروا مصر أمهم ولم يدخروا وسعاً في سبيل حمايتها ونصرها فكانوا خير مواطنين مستعرقين .

وأحسب أن هذه مقدمة كان لا بد منها قبل أن نتطرق إلى ما كتبه أستاذنا الجليل محمد حسين زيدان والذي تحمس للمماليك ثم تطرق من موضوعهم إلى عروبة مصر ، وتعمق في الأمر ، وشدنا إلى متابعة آرائه الجميلة واشتقاقاته اللغوية الرائعة ، وأنا أوافقه في نظرته دون شك من ناحية ، ومن ناحية أخرى فما أظن أن عروبة مصر في حاجة لإثبات أو تأكيد ، فمصر كانت ولا تزال وستظل عربيّة ، والتاريخ يقول ان أم العرب ـ هاجر ـ كانت اميرة مصرية من بلدة منف ، وقد تزوجها سيدنا إبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام ، ويذكر التاريخ أن هجرات كثيرة قد تمت بين مصر والجزيرة العربية وبالعكس ، وقد استمرت هذه الهجرات حتى فتح عمرو بن العاص مصر وانتشر الاسلام فيها وازدهر ، وأصبح الدين الرسمي لها ، وليس بعد هذا دليل على ان عروبة مصر تضرب بجذورها القوية في أعماق التاريخ ، ولا جدال في أن مصر هي الوعاء الذي افرخت فيه العروبة حتى في غير مصر.

وليس هناك شك في أن مصر صهرت الكثيرين ممن لجأوا

إليها واتخذوها موطناً لهم ، فهذا واقع يقرره علماء الانثروبولجي ـ علم الاجناج ـ وقد اكد هؤلاء ان هجرات عديدة قد تمت إلى مصر من النوبة والسودان وفلسطين والشام وفارس والأناضول وشعوب سواحل البحر الأبيض المتوسط بما فيهم ليبيا ، ومن الجرمان القدماء ، وقد تعجب علماء الآثار في مصر عندما وجدوا عيني الأميرة الشقراء مرسوعنخ زرقاء ، وبالدراسة اتضح أن أصلها يرجع إلى قبائل الجرمان الذين هاجروا من اسبانيا (٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ومنها دخلوا واستقروا فيها .

والمعروف أن العرب القدماء كانوا يرفضون الاختلاط لئلا تمتزج الأجناس ، وكانوا يفخرون بنقاوة أنسابهم حتى أنهم اعتبروا الأم وعاء لا أكثر وقال شاعرهم :

وإنما أمهات القوم أوعية مستحدثات وللأحساب آباء

وكما قال شاعرهم ايضاً :

بنونا بنو ابنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فجاء الاسلام يمزج الحسب بالنسب ، وفضائل الأمومة مع فضائل الرجولة ، فأصبح هو النسب ، ولم يجعل لأبيض على أسود فضلاً ، ولو أننا رجعنا إلى فجر الإسلام لرأينا

الألـوان البشريـة تجتمع تحت لـوائـه ، فهـذا بـلال بن ربـاح الحبشي الأسـود ، وهذا صهيب بن سنـان الرومي الأحمـر ، وهذا خباب من الأرت الآسيوي الأصفر ، وهذا خالد بن الوليد السيد العربي الابيض ، كلهم واحد في الإسلام ، ولا فضـل لأحدهم على الآخر إلاّ بـالتقوى والعمـل الصالـح . ولسمعنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول عن سلمان الفارسي : (سلمان من آل البيت)، ولشهـدنـا مصعب بن عمـر يقـول للصحابي الذي وجده ممسكاً بأخيه في الأسر في المعركة يوم بدر (اوثق عليه فإن له أماً موسـرة تفديـه) فيرد عليـه أخوه في ذهول قائلاً: (يا مصعب، أوهذا كل ما توصي به على اخيك؟) فيقـول مصعب بـإيمـان قـوي: (لست أخي وهـذا أخي في الإسلام).

كانت قومية قوامها النسب ، وعصبها العرق والأصل ثم أصبحت إسلاماً انصهرت في بوتقته المباركة القوميات وذابت العروق وتكاملت العناصر في اخاء محا الفـوارق وارتفع فـوق كـل شيء ، وجاءت الـوطنية لتكـون استعراقـاً ، وتكـون من الإيمان (حب الوطن من الإيمان) . إذن فالقومية نسب وأصل والوطنية ارتباط وانتماء ، وهي استعراق ، ولكن الإسلام يرتفع بـالانسان فـوق هذا كله ، وجـاء ليخلص الإنسانيـة من تعـدد الانتماءات ويرجع بها إلى انتماء واحد هو (بنوتنا جميعاً لآدم عليـه السلام) . إذن فهـو تصويب لأخـطاء البشر في عصبيـة

الانتماء المنوع والتبعيات المتعددة ، وبهذا تتساند الانتماءات كلها بمقوماتها لتصنع انتماء واحداً تحيا به كلها وتحقق آمالها في الحياة الكريمة .

طلع البدر علينا ... بين الهجرة وذكراها

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجبَ الشكرُ علينا ما دعا للهِ داع
أيُها المبعوثُ فينا جئت بالأمرِ المطاع
جئت شرَّفت المدينة مرحباً يا خيرَ داع

هذا نشيد سمعه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، دون شك ولا ريب ، ومن العقلاء من يحس عند سماعه ، إنه يسمع نفس النشيد بنفس الكلمات التي سمعها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

وقد ارتفع هذا النشيد لأول مرة من حناجر المسلمين المهاجرين والأنصار ـ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ـ عندما خرجوا يستقبلون الوافد الكريم ، وصاحبه الصديق ، مهللين مكبرين يرددون : «اللَّه أكبر جاء رسول الله صلَّى الله تعالىٰ عليه وسلَّم ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله »[1] .

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم بالسند المتصل عن أبي بكر رضي الله عنه .

كانوا فرحين مستبشرين ، فخورين معتزين ، مبتهجين شاكرين لله عزَّ وجلّ أن بارك مدينتهم وشرَّف أرضهم بأن جعلها موطن الإيواء والمنعة والنصرة لصاحب أعظم رسالة سماوية عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل ، ولقد صاغت كلمات هذا النشيد قلوبهم المحبة لمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم ، المؤمنة برسالته السامية ، فجرت تلك الكلمات على ألسنتهم ألحاناً وضاءة بالبشر معطرة بالمسك ، واستقرَّت في ذاكرة التاريخ الحافظة رمزاً لأروع وأبدع استقبال ، ولكي يرددها الملايين من المسلمين كلما تجددت الذكرى الخالدة للهجرة المحمدية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بصاحبها عليه أزكىٰ الصلاة والسلام .

وقد سمع رسول الله هذا النشيد حين وصل وصاحبه الصديق إلى ثنيات الوداع[1] ، ورأى المسلمين وقد اجتمعوا لاستقباله والاحتفاء به صلَّى الله عليه وسلَّم ، متقلدين سيوفهم مرتدين أجمل ثيابهم ، وقد علت الفرحة والزهو وجوههم ،

(١) في هذا يقول الاستاذ العالم الدكتور خليل ملا خاطر : إن كتب الحديث أوضحت بأنه يوجد ثنيتان للوداع الأولى أمام مسجد قباء وهي التي وردت في هذا الحديث ، عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة من مكة ، والثانية وهي شمال المدينة هي المشهورة اليوم وهي الطرف الشرقي الجنوبي من جبل سلع ، وهي التي ودّع عليها المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذهابه لغزوة تبوك .

ورأى زعماءهم وكبار سادتهم وهم يتزاحمون على زمام الناقة تعظيماً لقدره صلَّى الله عليه وسلَّم ، وتقديراً لمكانته وتعبيراً عن سعادتهم بمقدمه ، ورغبة من كل واحد فيهم أن ينال شرف إقامة الرسول في بيته ، ولكن الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، دعا لهم بالخير وقال وهو يشير إلى الناقة « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » .

والذين يستمعون اليوم إلى نشيد « طلع البدر علينا » ويستمتعون به يعقلون تماماً أنهم يستمعون إلى نفس النشيد الذي استمع إليه الرسول الكريم ساعة وصوله إلى ثنيّات الوداع :

وليت شعري كيف يستقبلونه ؟
وإلى أي مدى يكون انفعالهم به ؟

وما هو الإحساس الذي يحسّونه عندما تصافح آذانهم كلماته العذبة المعبّرة في بساطة عن أعظم حب وأصدق ود ؟

وما هي درجة الانتشاء والسعادة التي يصلون إليها وهم يعيشون لحظات مفعمة بجلال الإيمان وغبطة الاستماع إلى ما استمع إليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؟

لا جدال أنهم يستعيدون بهذا النشيد تلك الحياة العظيمة الكريمة التي عاشها رسول الله صلَّى الله عليه

وسلَّم ، وليداً ، فطفلاً رضيعاً ، فصبياً ، فشاباً ، فرجلاً ، فرسولاً يدعو إلى الدين الحق بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولا جدال أن شريطاً بالصوت والصورة الملونة يرتفع أمام أعينهم ليعرض كل هذا ، بل يسبق كل هذا ، ليعرض موقف أهل مكة وهم يحتفلون بالنصر على أبرهة وفيله وجيشه ، وموقفهم وهم يستقبلون العرب الذين تسامعوا باندحار المعتدين ، فجاؤوا يهنّئون قريشاً بالآية الكبرى التي أظهر بها الله كرامة البيت العتيق ورفع مكانة الذين يعيشون حوله ، ويعتبرون أنفسهم أهله .

وإن الشريط ليعرض قصة المولد الشريف حيث تظهر آمنة بنت وهب ، سيدة الأمهات ، وقد أشرقَ المكان من حولها وامتلأ بالأنس والجمال ، وارتفع الحجاب عن عينيها ، فإذا بها تبصر قصور بصرىٰ في أطراف الشام ، وقوافل الإبل تتهادىٰ في أقاصي الصحراء ، ثم تضع وليدها فإذا به يمس الأرض يتقيها بيديه شبه ساجد ، وقد رفع رأسه إلى السماء .

ثم تبدأ بركات الوليد تحِل على من حوله ، فتسعد به أمه ، وتجد فيه عوضاً عن زوجها الفقيد ، وكذلك يسعد جده ويرى فيه العوض عن الولد الذي ماتَ بعيداً عنه ، ولا تكاد الجارية ثويبة تنقل الخبر إلى سيدها عبد العزى ، أبو لهب ، حتى تنسيه الفرحة بخله وشحه ويصيح بالجارية « اذهبي فأنت حرة ، وعندما تأخذه حليمة السعدية لترضعه تحل البركة عليها

وينهمر الخير ، فتسعد هي وأهلها ، بل إن بركات الوليد تحل على ناقتها وأتانها .

ويمتد عرض الشريط على المشاهدين ، فيسعدون برؤية الرضيع وقد شبَّ عن الطوق ، متحلياً بأكرم الأخلاق ، وأنبل الصفات ، مترفعاً بنفسه عن كل ما يلجأ إليه أمثاله ومن هم في سنّه من لهو وعبث ، ثم يشهدونه وقد أصبح مثلاً أعلى للشباب في مكة وما جاورها ، فهو الصادق الأمين ، وهو العفيف الشريف ، وهو التاجر الذي لا يلجأ إلى الغش أو الخداع ، أو يقبل ربحاً حراماً .

ويكرمه الله تبارك وتعالىٰ بالزواج من أفضل نساء قريش وأطهرهنَّ وأكثرهنَّ مالاً فيتاجر ويربح حلالاً طيباً يضاعف به أموالها ، ثم تختاره قريش ليكون حكماً في النزاع حول وضع الحجر الأسود في مكانه من البناء الجديد للكعبة ، ويخضع جميع السادة لرأيه وينفذون حكمه ، وهم سعداء به أشدّ السعادة معترفين بفضله ، مقرين بحكمته وحسن مشورته ، فلا يأخذه الغرور أو يعرف الكبر الطريق إلى قلبه ، وإنَّما يظل على تواضعه الكريم وحبه للفقراء والمساكين وعطفه عليهم ، ولا يفتأ يردد قولته المشهورة : « إنَّما أنا ابن إمرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1] وهو لا ينسىٰ أحداً من ضعفاء قومه ، فهذه

(١) كان هذا بعد الهجرة .

«بركة» الجارية التي ورثها عن أبيه ، إنه يكرمها ويبالغ في إكرامها إلى درجة تجعله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول عنها : « إنها بقية أهل بيتي » و « هي أمي بعد أمي » ويروح يلتمس لها الزوج ، فيقول لأصحابه : « من سرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن » .

ويستمر الشريط في عرض أحداث تلك الحياة الفاضلة ، النقية التقية ، الطاهرة الزكية ، حتى البعث فيراه المشاهدون وقد نبّىء وأخذ يدعو الناس إلى العبادة الحقة عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إلٰه غيره ولا شريك له أو ولد ، ونبذ ما هم عليه من عبادات ضالة مضلة وجهالات ضارة مضرة ، فتؤمن به خديجة رضي الله عنها ، ويؤمن علي كرّم الله وجهه ، والصديق والبعض من سادة قريش والمئات من الضعاف والعبيد والأرقاء ، ويكفر بدعوته معظم السادة من قريش ورؤوس أحيائها ، ويعادونه ويؤذونه في نفسه وأهله وأتباعه ، وهو صابر مثابر لا يمل ولا يضعف أو يتراجع ، بل يحتمل ويحتمل على أمل أن يشرح الله قلوبهم للإسلام ، ويحاول طواغيت قريش شراءه بالمال والجاه والسلطان ، ليترك هذه الدعوة فيرفض كل ألوان الإغراء ، ويظل يناضل ويكافح بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة . وعندما يبلغ إيذاء قريش لأتباعه الضعفاء القمة ينصحهم بالهجرة إلى الحبشة ، فيزداد حقد طواغيت قريش ويتضاعف سخطهم ويصممون

على التخلّص منه بفكرة يعرضها أبو جهل وهي أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جليداً نسيباً يضربونه ضربة رجل واحد بسيوف مسمومة مشحوذة ، فيتفرق دمه بين القبائل وينتهي أمره ، وعلى الفور نفذت قريش الفكرة ، وأحاطَ أولئك الشباب ببيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، انتظاراً لخروجه عند الفجر للصلاة ، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أحاطه علماً بما بيّنوا ، وعرفه بكيدهم وأمره بالهجرة . فطلب صلَّى الله عليه وسلَّم من علي رضي الله عنه أن ينام في فراشه ويلتحف بغطائه ، ثم خرج وهو يقرأ الآيات ﴿ **بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم يٰس والقرآن الحكيم . إنَّك لمن المرسلين على صراطٍ مستقيم . تنزيل العزيز الرَّحيم . لتُنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾[1] . فأخذ الله بأبصارهم جميعاً ، ولم يروه أو يشعروا بخروجه فوضع التراب على رؤوسهم ومضىٰ في طريقه آمناً بفضل الله تعالىٰ ورعايته .

وتتوالى الأحداث الجسام ويراه المشاهدون في الغار مع الصدّيق . والصدّيق خائف حزين فيطمئنه صلَّى الله عليه

---

(١) سورة يٰس ، الآيات ١ ـ ٩ .

وسلَّم قائلاً : ﴿ **لا تحزن إنَّ الله معنا** ﴾[1] . ثم يخرجان من الغار ويسيران في جوف الصحراء مع الدليل ، فيراهم سراقة ابن مالك ، وكان قد خرج يطلب رسول الله طمعاً في الحصول على المائة ناقة التي جعلتها قريش مكافأة لمن يأتي بمحمد حياً أو برأسه ميتاً .

ويجتهد سراقة ليلحق بالركب ، ولكن الله يحول بينه وبين ذلك ، إذ يعثر به جواده وتسوخ قوائمه في الرمال مرتين . وفي الثالثة توشك الرمال أن تبتلعه وجواده ، فيعلم أن محمداً رسول الله حقاً وأنه ممنوع بأمر من الله سبحانه وتعالىٰ فيستغيث به صلَّى الله عليه وسلَّم ، ويستجيب نبيّ الرحمة ويدعو له فيخرج بالجواد سليماً من جوف الرمال ويلحق بالركب ، ويروي قصته لرسول الله ويطلب منه أن يكتب له كتاباً ليعود به إليه يوم يظهره الله على العالم ، فيكتب له الرسول في قطعة من عظم كتاباً ويعده بسواري كسرىٰ[2] .

ويعود سراقة إلى مكة ليعلن إسلامه ويتحدى أبا جهل ومن معه من المشركين ثم ينشد الأبيات :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

(٢) صدق وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد البس عمر بن الخطاب سواري كسرى في زمن خلافته لسراقة وكذلك تاجه ومنطقته ، السيرة النبوية / عبد الحميد جودة السحار ج ١١ ص ١١٤ .

أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً رسول ببرهان ، فمن ذا يقاومه
عليك بكف القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

ويصل الرسول الكريم إلى ثنيّات الوداع يستقبلونه الأنصار والمهاجرون هذا الاستقبال الرائع بل المذهل وينشدون هذا النشيد الذي خلد مع الزمن واستقرَّ في قلب كل مسلم وفي ذاكرته . يستعيده كلما أهلَّت الذكرى ، ويستعيد به سيرة المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم .

حقاً ، لقد كان محمد بدراً استنارت به الدنيا يوم مولده ، وكان بدراً يوم مبعثه إذ جاء الإنسانية بالدين الحق الذي أخرجها من دياجير الشرك والضلال إلى نور الإسلام ، وكان بدراً في قلوب المسلمين جميعاً يوم عاد بجيشه من تبوك سليماً بعد أن أرجف المرجفون وتقول المغرضون ، وكان بدراً يوم الفتح الأبلج حين دخل مكة في عشرات الألوف من أصحابه ، وكان فتحاً كما أراده الله تعالىٰ وبشره به يوم صلح الحديبية ، ولسوف يظل صلَّى الله عليه وسلَّم بدراً في قلوبنا جميعاً نستشعر بنوره سعادة روحية لا حدود لها ، ونستنير بأقواله وأفعاله إلى ما شاء الله تعالىٰ .

لاعزاء للناشدين

وشاءَ الله أن أصبح من الذين أصابتهم حرفة النشر أو الوراقة ، مع الاعتذار للذين أدركتهم حرفة الأدب ، كما يقول الأستاذ طاهر أبو فاشا .

وأدركت بعد فوات الأوان ، وبعد أن سبق السيف العذل ، وطاحَ الفأس في غير الرأس فكان أشد إحراجاً . إن هذه الحرفة ، « الوراقة » كما يقولون ، تحتاج إلى : مال قارون ، وصبر أيوب ، وعمر نوح ، وحكمة لقمان ، عليهم السلام جميعاً .

وعرفت أن الناشر في بعض الأحيان مثل « حمّال العنب » يحمل ولا يأكل .

والناشر حقيقة في العالم العربي ، هو صاحب مهنة يصارع فيها خضم اليأس بسواعد الكفاح ، ومعظمهم عاشَ عبر التاريخ على الكفاف .

وتُروى قصة طريفة عن الوراقين في بغداد ، حيث يُروىٰ

أن وراقاً عاش في بغداد وعمل في الوراقة لسنوات طويلة ، وكان همه العناية بالكتب ، والبحث عن النفائس وإبرازها وتقديمها إلى الناس ، ولكنه أزهق ثم أفلس ، فاضطرَّ إلى مغادرة بغداد بعد أن ضاقَ به الحال ولم يجد قوت يومه ، وكانت دهشته عظيمة يوم خروجه حيث تجمع المئات من الناس يودعونه على أبواب بغداد متألمين ، باكين ومتحسّرين على مغادرته ، فالتفت إليهم ولسان حاله يقول :

ــ قاتلكم الله لو أن كلاً منكم قدَّم لي كسرة خبز وبعض طعام أو مساعدة لما غادرت بغداد ، وإنَّما غادرتها تحت وطأة الجوع والفقر والمعاناة . .

ويُروى كذلك عن الأستاذ أحمد حسن الزيّات صاحب مجلة « الرسالة » ، عندما أغلقها في آخر الأمر تحت وطأة المصاريف المرتفعة والتكاليف والديون ، يقول الأستاذ الزيّات بأنه قد تسلَّم آلاف الرسائل مستنكرة ومتألمة على توقّف « الرسالة » ، وقد قال يومها :

ــ عفا الله عنكم جميعاً ، لو أن كل واحد وضع جنيهاً واحداً داخل رسالته ، لتمكّنت من معاودة إصدارها دون عناء !!

ومن الطرائف التي تُروىٰ ، ما رواه الحضرمي في نفح الطيب : « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها أرتقب وقوع

كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد ففرحت أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المنادي بالزيادة علي إلى أن بلغ فوق حده فقلت له :

يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت :

ــ أعز الله سيدنا الفقيه ، أن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده .

فقال : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ولكني أقمت خزانة كتب لأتجمّل بها بين الأعيان في البلد ، ورأيت هذا الكتاب حسن الخط جيد التجليد فاستحسنته ولم أُبالِ بما يزيد فيه والحمد لله على ما أنعمَ عليَّ به من الرزق فهو كثير .

فأحرجني الرجل ، وقلت له :

لا يكون الرزق كثيراً إلاَّ عند مثلك ، يُعطىٰ الجوز من لا عنده أسنان ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه .

والناشر كالجندي المجهول الذي لا يحسّ به أحد ، ولكن بصماته تظل منقوشة على كل كتاب يُدفع به إلى السوق وجهده وراء كل ازدهار للمعرفة والتي لا يمكن بدونه أن تتجاوز

عقل المفكر ، ولهذا فهو صاحب رسالة عظمىٰ على مر التاريخ .

ولقد كان للعالم الإسلامي ريادة عظيمة في مجال الوراقة وفي وضع أسس هذه المهنة ؛ ففي أول العهد الإسلامي اتَّخذ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كتبه للوحي ، فكانوا يكتبون على الرقاع من الجلود والعظام . وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه جمع القرآن وهو على صورته الأولى في جلود وعظام ورقاع من سعف وحجارة فنسخ في الرقوق ، وحفظ عند أبي بكر ثم عند عمر رضي الله عنهما ، ثم استخرج في عهد عثمان رضي الله عنه ، وقام بعض الصحافة بنسخه عدة نسخ ، فهؤلاء الصحابة كانوا الوراقين الأوائل ، وكانوا رضي الله عنهم ينسخون بلا أجر ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ[1] .

أما في عهد بني أمية فقد اتَّخذ ملوك بني أمية غلماناً وكتّاباً وأجراء للنسخ واشتغل أناس بالوراقة مقابل أجره ومنهم مالك بن دينار . .

ولقد كانت البداية في العهد الأموي ثم انتشرت الوراقة وتطوّرت في العصر العباسي ، وانتشرت الحوانيت الخاصة بالوراقة فيما بعد ذلك .

وللأخ الأستاذ لطف الله قاري كتاب لطيف ثري

بالمعلومات عن الوراقة والوراقين سماه « الوراقة والوراقون » ، من منشورات دار الرفاعي ، والأخ لطف الله قاري باحث جادّ وله همة تبشر بخير وخصوصاً في هذا المجال الذي نحتاج فيه إلى باحثين من ذوي الهمم ليقدموه لنا في صور يسهل استيعابها والاستفادة منها .

وعودة إلى موضوعنا ، فإن شعوراً يملؤني بأن هذه المهنة تحتاج إلى دعم وتأييد الدولة بكافة أجهزتها ، لأن صلاح هذه المهنة وتطوّرها سوف ينعكس دون شك على واقعنا الثقافي ، والتشجيع ليس مادياً فقط بل هو رعاية وتشجيع وحماية من الدخلاء ومن المزورين الذين يسيؤون إلى هذه المهنة الشريفة ويزيدون من متاعب وهموم العاملين فيها .

وأنا إنَّما أدعو إلى تشجيعها لأن مسيرة الحضارة الإنسانية على مرّ التاريخ توضح لنا كيف كان التطوّر الحقيقي يتحدد بمدى تطور العناية بصناعة الكتاب ، ورعاية المفكرين ، وقد كان هذا ينعكس دائماً من خلال ازدهار الوراقة أو انحطاطها في أي عهد من العهود ، لأنه الوسيلة الأساسية لنمو المعرفة وانتشارها . .

ولقد ساهمت مهنة النشر في منشآت الحضارة الإسلامية وتطوّرها ، وتمَّ ذلك من خلال جهود الوراقين ، حين انتشرت

أسواق الوراقين في كل مدينة من المدن الهامة في العالم الإسلامي .

« ففي فسطاط مصر كان على عهد الطولونيين والأخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع ، وأحياناً تدور في دكاكينها المناظرات ، وفي القاهرة بنيت سوق للكاتبين حوالي سنة ٧٠٠ هـ وكانت مجمعاً للعلماء »[٢] .

وفي بغداد وُجدت سوق للوراقين ، بل وأكثر من سوق ، وفي البصرة كذلك حيث كانت مكاناً لتجمع العلماء ، وفي قرطبة كان الورّاقون بكثرة عظيمة ، وكانت قربة كذلك أكثر بلاد الأندلس كتباً وأشد اعتناءً بخزائن الكتب .

وكانت هذه الأسواق تحتوي على دكاكين الوراقين وأحياناً كانت تحتوي على مزاد علني يُباع فيه مجموعات من الكتب ، وكان حضور الناس لهذه الأسواق لا يقتصر على شراء الكتب وإنَّما يزدحم الناس من أجل اجتماع العلماء ، وما ينشأ من مناظرات ومدلولات ومناقشات .

وأجمل ما نقرأه في هذا الصدد ما أورده صاحب « الوراقة والوراقون » عن المستشرقة « هونكه » صاحبة كتاب : « شمس العرب تسطع على الغرب » .

« وفتحت اللهفة على اقتناء الكتب الباب أمام مئات

الألوف من البشر لكسب عيشهم ، فأصبح النساخ والخطاطون مهرة في فنهم ، ووظفت كل مكتبة أو متجر للكتب عدداً من هؤلاء كان أغلبهم من الطلبة وأنصاف المتعلمين الذين أرادوا كسب رزقهم » .

«وانتشر منتجو الورق بطواخيهم في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس وفي فلسطين والأندلس وتبعهم المجلّدون متأثرين بفن التجليد الصيني »[٣] .

هكذا نمت هذه الصناعة ، واستخدمت رزماً من الأوراق ولترات من الحبر استهلكت في الكتابة ، وأصبحت الوراقة كالصيدلة هدية عظيمة قدمها العرب للبشرية .

وهناك في أسواق البصرة وبغداد مئات الحوانيت كان يفد إليها المتعلمون من أنحاء العالم الإسلامي لينهلوا من مناهلها العذبة .

فليت شعري ! هل يعيد التاريخ نفسه ؟ وهل تعود الأمة للاهتمام بهذه المهنة الكريمة ؟ وهل تلقىٰ في عالمنا اليوم ما لقيته من دعم وتشجيع لتبدأ بمسيرتها من جديد بعد أن أخذت تتراجع في عالمنا الإسلامي ، وصيغت بألوان التجارة وأخذ يحكمها العرض والطلب ، وتحولت أهدافها وأحوال أهلها ، وقد كان الناشر يتَّصف بالثقافة والاهتمام بالفكر والعلم ، وكانت فعلاً مهنة العلماء والمثقّفين ؟ ولعلَّ أقرب مثال على

ذلك الإمام الورع أحمد بن حنبل ، الذي كان يعمل بالوراقة والنسخ على وجه الخصوص ليكسب قوت يومه .

وقد وصف ، حال هؤلاء ، ورّاق «نيسابور» كان يدعى «أبا حاتم»، حيث قال .

إن الوراقة مهنة مذمومة محرومة عيش بها زمن
إن عشتُ، عشتُ وليس لي أكل أو متُّ، متُّ وليس لي كفن

(١ ـ ٢ ـ ٣) المراجع ـ الوراقة والوراقون ـ لطف الله قاري المكتبة الصغيرة ٣٧٦هـ .

تهاويل

من المؤسف حقاً أن تتحدث الدول الكبرى عنا على على أساس أننا دول « نايمة » ، أو قوم متخلفون عقلياً ، ثم تطلب أن نتجاوب معها ، ونعرب لها عن تقديرنا العميق لتفهمها لقضايانا « العادلة» .

إننا دول « نامية » لا بأس ، دول متخلفة اقتصادياً وتكنولوجياً ، لا بأس ، ولكننا لسنا متخلفين عقلياً حتى يخاطبونا على هذا النحو وبهذه الكيفية ، وفرق بين « النامية » و « النايمة » ، ومن المزعج قطعاً أن تعمد هذه الدول عند مناقشة قضية تخصنا نحن العرب إلى استدعاء من يسمونهم « أصدقاء العرب والمتخصصين في القضايا العربية » ، وكأننا أمة قاصرة أو عاجزة وهؤلاء أوصياء علينا .

لماذا لا يُستدعى العرب لمناقشة القضايا والشؤون العربية وفيهم من فيهم من العلماء والمختصين ، والخبراء ، ولكنها العقلية الاستعمارية القديمة ، والنظرة الظالمة غير الموضوعية التي تعودوا عليها .

وقد استغربت للتمثيلية الكبيرة التي قامت بها دولة كبرى مثل امريكا لتعلن التهديد بانسحابها من منطقة اليونيسكو ، لمجرد أن الأعضاء ، بالاجماع ، قد اختلفوا معها في موضوع النظام الاعلامي الجديد . . وأكدوا تمسكهم بأهمية دعم هذا النظام ولو من ناحية نظرية بحيث تتحقق عدالة في التعامل ، وتصبح العملية عملية تبادل وعملية تعاون ، وامتزاج ثقافات وتفاعلاً حضارياً وليس غزواً صريحاً ، ومسخاً للشخصية وتعدياً واضحاً على القيم والمبادىء للأمم والشعوب المغلوبة على أمرها ، وانتهاكاً لحريتها ، حيث ستبقى مستغلبة ، مسلوبة الإرادة ، وجهة اخرى مرسلة مهيمنة ، ومع ذلك تكره أمريكا أن تعترض الدول اعضاء اليونيسكو ، وأن تحاول وضع نظام جديد فيه عدالة للجميع . ثم قضية « بريان نلسون » المذيع الكندي الذي فصل لأنه اشترك في نشرة أخبار في « أبو ظبي » ، وورد في النشرة اسم إسحاق شامير كإرهابي .

وعلى أي حال ، فقد تعودنا مثل هذه التعنتات والتخرصات ، ولكن هذا من جانبهم ، وهذا اسلوبهم ، ونظرتهم نحونا ، فماذا عنا نحن ، وعن دورنا في الدفاع عن أنفسنا ، وعن مبادراتنا وتحركنا الواعي ؟؟

والحق أننا نحمل تبعات السلبية التي نتعامل بها مع العالم ، وننتظر منه أن يتفهم قضايانا « المصيرية »

و « العادلة » ، و « الواضحة » لمجرد أنها مصيرية في نظرنا ، وعادلة في تقديرنا ، وواضحة في مفهومنا ، دون مجهود منظم ، او همم منطلقة على طريقة شاعرنا :

« سألت الله أن يأتي بليلي » .

هكذا لا مبالاة ، وتقاعس عن أداء الواجب بصحبة بعض التشنجات عند اللزوم .

وتمضي القضية نحو عدالتها ، ويمضي الدبلوماسيون العرب نحو مكاتبهم المنتشرة في كل مكان في العالم وكل شيء على ما يرام ، والتقارير تملأ الخزائن حتى ضاقت بها ، والبرقيات والتلكسات ، والمكالمات ، «وكله تمام يا افندم» .

ومع ذلك ، يأتي « أصدقاء العرب » ليتحدثوا عن « القصّار » وعن « الولايا » .

ويهزمنا العدو سياسياً ، كما هزمنا حربياً ويحال الأمر لمسؤولية « أصابع الصهيونية العالمية » بأيد عربية مخلصة .

ومن المؤسف أننا جميعاً نعشق الاجتماعات والندوات العربية ، والنداءات الأخوية ، وكل موضوع يحيا نقيم له ندوة ، وكل موضوع يموت نقيم له أيضاً ندوة ، تماماً كعدوى اللجان في الأعمال الوزارية « إذا أردت أن تقتل موضوعاً فأقم له لجنة» .

مئات ، بل آلاف الموظفين ، والخبراء ، والمختصين

في أنحاء العالم العربي والخارجي من أجل إيضاح القضية ، ولم تتضح .

من أجل فضح المؤامرات الدنيئة ، ولم تفضح .

ومن أجل عدالة القضية ولم « تعتدل » .

ومن أجل جمع الكلمة ولم « تجتمع » .

ومن أجل توحيد الصف ولم « يتوحّد » .

أفلا يحتاج الأمر إلى مراجعة للنفس ، وللخطط وصناعة جديدة للرجال الذين يقدرون أبعاد المسؤولية الملقاة على عواتقهم ، والأمانة التي حملتها لهم أوطانهم ، وأن يتم اختيارهم على أساس المهام ، وليس على طريقة « التخلص » « وخاطر أشن » حتى امتلأت الساحات الدولية برجال لا يعملون ولا يتركون من حولهم يعمل ، رجال ذهبوا للراحة والاستجمام ، ومعظمهم لا يعرف أبجديات العمل الذي أُرسل من أجله .

فهل نستغرب ، يا عرب ، أن نُهزم سياسياً ، كما هُزمنا عسكرياً .

ونبقى نردد : أمة عربية واحدة ، من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي .

« تهاويل » .

عمك جمل

عجبت لرجال يرتجفون عند أول مجابهة ويتساقطون عند أول صدام ، ويتخاذلون عند أول اختبار ؛ ينفرون بلا نفير ، ويتطايرون بدون نذير ، نفوسهم مهزومة من الداخل .

فهم رجال بلاعزائم ولا همم .

أولئك إذن أصحاب النفوس الصغيرة .

وهم دائماً صغار ، دائماً ضعاف النفوس ، خائرو العزائم يبحثون عن سند ، وعن رجال يصنعون لهم مواقف .

ولكن الكبار ، لهم نفوس كبيرة وآمال عريضة وهمم تتخطى الحواجز ، وتتسامىٰ فوق الصعاب .

وسند هؤلاء أكبر من البشر ، وأقوى من أن يقهر ، لأنه « الله » ، ولأنهم مؤمنون باللّه، ويستمدون القوة من إيمانهم بالله .

ومن الأمثال المشهورة في مكة والتي تُقال دائماً لمن له

سند أو دعم ، أو حماية كبيرة لا يخشىٰ معها أحداً إلاَّ الله طبعاً مقولة :

عمك جمل . . !! (عمو جمل . . !!) .

(اللي له ظهر ما ينفرش على بطنه) .

وهي في مجملها تعني حقيقة واحدة : إن من له سند يتّكىء عليه في الحارة أو في المدينة يستطيع أن يسير مطمئن البال ، رابط الجأش ، معتمداً على هذا السند .

فإذا كان هذا شأن من له « عم » ، أو سند في الحارة أو المدينة أو حتى في العالم .

فكيف بمن يكون سنده هو الله سبحانه وتعالىٰ ، ولله المثل الأعلى ؟

فمن كان له رب يجب أن لا يخشىٰ أو يتخوّف أو يرتجف ، أو يتحسّب لأي قوة أخرى لأن مصدر قوته أن له رباً .

يقول في محكم التنزيل :

﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾[1] .

ومن كان يؤمن بأن له رباً يكفله ويرعاه تذوب أمامه جميع

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣٦ .

العقبات ، وينام قرير العين هانيها ، وذلك لأن له رباً ، له رب يرزقه فلا يخشىٰ على رزقه ، فهو يعلم حقيقة هامة : إن رزقه في السماء :

﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾[1] .

ولأن له رباً فهو لا يخشىٰ على رزق أبنائه ، فالله سبحانه وتعالىٰ يقول :

﴿ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾[2] .

﴿ نحن نرزقهم وإيّاكم ﴾[3] .

فالمسألة بيده سبحانه وتعالىٰ لا بيد أحد .

ولأن له رباً ، فهو لا يخشىٰ الموت ، لأن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يتوفاه ، وهو الذي يعلم في أي وقت وفي أي بلد يموت :

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت إن الله عليم خبير ﴾[4] .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة الانعام ، الآية ١٥٣ .

(٣) سورة الاسراء ، الآية ٣١ .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

ولأنه يؤمن بأن القضايا كلها مرهونة بإرادة ربه فما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وإن أهل الأرض لو اجتمعوا ليضروه بشيء لم يرده الله له لما استطاعوا ، ولو أرادوا أن ينفعوه بشيء لم يرده الله ما استطاعوا أيضاً ؛ فهو من هذا المنطلق إذن يؤمن بأن الله معه ، ومن كان يوقن بأن له رباً لا يخشىٰ أحداً ولا يرجو أحداً غيره .

ومن كتاب أمير المؤمنين علي لابن عباس رضي الله عنهما :

(أما بعد ، فإن المرء قد يسرّه درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فاتك منها . وما نلت من دنياك فلا تكثر فيه فرحاً وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً ، وليكن همك فيما بعد الموت) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانتفاعي بهذا الكلام .

ولأنه يقرأ قول الله سبحانه وتعالىٰ :

﴿ وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشفَ له إلاَّ هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾[1] .

---

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٧ .

وقوله سبحانه وتعالىٰ : **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموٰات والأرض ليقولنَّ الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرٍّ هل هنَّ كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هنَّ ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾**[1] .

وهذا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يعلمنا معنى التوكل وأن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالىٰ حيث يقول :

(وإن روح القدس نفث في روعي بأنه لن تموت نفس قبل أن تستوفي أقصى رزقها وأجلها فاتَّقوا اللَّه واجملوا في الطلب ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق على ان تطلبوه بغير طاعة اللَّه لأن ما عند اللَّه لا ينال إلاَّ بطاعته، جفت الأقلام ورفعت الصحف)[2].

وكانت اللفتة الكريمة من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في لحظة الخوف عليه من صديقه الصدّيق رضوان الله عليه في غار « ثور » عند رحلته المباركة ، رحلة الهجرة العظيمة ، ان التفت إليه وهو يقول ، ليعلمنا معنى معية الله سبحانه وتعالىٰ :

﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾[3] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣٨ .

(٢) رواه ابو نعيم في الحلية .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

وكذلك كانت مواقف الإيمان عند أنبياء اللّه، فهذا موسى عليه السلام يستشعر معية الله كما حدثنا القرآن الكريم يوم صاحَ قومه ﴿ إنّا لمدركون ﴾ [1] فقال : ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ [2] .

فما دام الرزق بيد الله ،

والعمر بيد الله ،

والخير بيد الله ،

والتصرّف كله ، أوله وآخره ، بيد الله .

ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فعلام الخوف والوجل ؟

وعلام الخشية والتحسّب ؟

فبحسب المؤمن أن يضع إرادته وعمله في تيار المشيئة الإلهية مؤمناً بقول الله تعالىٰ :

﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ [3] .

ولذلك فالعقلاء من المؤمنين ينامون ملء أعينهم لأنهم يستشعرون أن الله معهم .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٦١ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٦٢ .

(٣) سورة الطلاق ، الآية ٣ .

التفحيط ظاهرة صحية

﴿ والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً ﴾

(الأعراف ـ ٥٨)

لا أدري لماذا ينزعج الناس من عملية « التفحيط »[1] التي يقوم بها الشباب بسياراتهم ودباباتهم ودراجاتهم ؟ فأنا أنظر إلى هذا الموضوع على أنه ظاهرة صحية سطحية ونعمة لا نقمة ؛ وذلك لأن التفحيط يأخذ بأيدينا ويضعها على مكامن الداء الذي كان دفيناً في النفوس فطفح على السطح وأصبح ظاهراً للعيان ، ولا شك أن هؤلاء الذين يفحطون ويزداد عددهم يوماً بعد يوم يلفتون الأنظار إلى قضايا جوهرية يعاني منها هذا الجيل ، ولا بد لنا أن نهتم بهم بدلاً من شجبهم وبدلاً من تعنيفهم ، ولا بد لنا أن نعود إلى أنفسنا ونتساءل :

---

(١) التفحيط : هو نوع من أنواع رياضة السيارات الأكروباتية العنيفة ، والتي يندفع فيها الشباب بسياراتهم ثم يقفون فجأة ، ويجعلون السيارة تدور في شكل فجائي عنيف .

ـ لماذا يفحطون ؟
ـ ومتى بدأوا يفحطون ؟
ـ ما هي الأسباب الجوهرية التي دعتهم إلى التفحيط ؟
ـ أي قوى داخلية في أنفسهم تدفعهم إلى ذلك ؟
ـ هل هو الفراغ ؟
ـ هل هو الإهمال ؟
ـ هل هو الكبت والرغبة في التعبير عن مكنونات النفس ؟
ـ هل هي الأسرة التي انشغلت عن أبنائها ؟
ـ أم هي المدرسة التي لم تعد تُعنىٰ بحاجات الطالب في هذه الفترة الحرجة من حياته ؟

ـ هل هو المدرّس أم هي المناهج أم هو مجموعة عوامل متعددة ساعد على ظهورها ذلك التغيير الاجتماعي والاقتصادي الذي نمر به دون قدرة على استيعاب معطياته ، سلبية كانت أم إيجابية ؟

ـ أم هو أخيراً ، وليس آخراً ، فقدان الحرية في التعبير عن أنفسهم ؟

إننا نمنعهم من حقهم في التعبير عمَّا يجيش في صدورهم ، ونقتل الإبداع وروح الابتكار بمنعهم من ممارسة الحرية في التعبير ، وليتَ الأمر وقف عند هذا الحد إذن لهانَ الخطب ، ولكننا لا نعطيهم من الوقت ما يكفي لأن يفتحوا لنا

قلوبهم ويفرغوا ما في صدورهم من مكنونات ؛ فالأب مشغول في الخارج ، والأم مشغولة في الداخل ، والمدرس مشغول أيضاً ولا يكاد يفرغ من إعطاء الدرس حتى يسرع بالخروج من الفصل ، دون وجود وقت للحوار والمناقشة .

وهكذا يظل المراهق والشاب في حيرة وقلق وتوتر ورغبات داخل صدره تغلي وتلحّ طالبة التنفيس ولما لا تجد ذلك التنفيس تخرج في شكل انفعالات عنيفة منها ذلك التفحيط ، ولولا هذا التفحيط لما ظهرت كوامن الانفعالات المكبوتة في النفوس .

ومن المهم أن يدرك المجتمع مسؤوليته تجاه هذا الشباب ، وأن يحرص على تفهّم رغباته ، وطموح هذا الجيل واحتياجاته ، وأن نعمل ما نستطيع لسد الفجوة بين الجيلين لأن كلا الجيلين نشأ في بيئة وظروف مختلفة ، ولا بد من تفهّم مشاكله وتوفير المرونة الكافية له حتى تتبلور إمكاناته وكفاءاته وتتّضح معالم شخصيته ، ولا بد من عملية اتصال مباشر بيننا وبينهم حتى لا تنقطع الصلة وتتعطل قنوات الاتصال ، ولا بد أن نعي دورنا بالنسبة لشغل أوقات فراغهم ، وبصورة خاصة الفراغ النفسي لدى الشباب ، ومن الأهمية بمكان أن يدوروا حول هدف معين : شعار خاص بهم ، قضية تجمعهم، أية قضية شبابية ، رياضية كانت أو فنية أو علمية ، وإذا كانت

الأمم ، المعادية للإسلام ، قد جعلت للشباب مؤتمرات ومعارض ومباريات وغير ذلك ، فإن الواجب علينا نحن أن نربط شبابنا بهدف أو قضية ينشغل بها ويُنفس عن طاقاته في العمل من أجلها ، ولا بد أن نعرف هنا أن الشباب لا يكون صاحب قضية إلاَّ إذا تفاعل مع الأحداث وانفعل بها ولم يدعها تمرّ به دون أن يشارك فيها .

كم من مراهق يريد أن يسأل ويسأل ، ولكنه لا يجد من يوجّه إليه أسئلته ليعطيه الإجابة السليمة ، كم من شاب يريد أن يستشير وأن يتعرّف إلى آراء من هم أكبر منه ، في السن والعلم والخبرة والتجربة ، ولكن أحداً لا يستمع له فالوقت ضيق لدى الجميع والكل يلهث .

وكم من فتاة تريد أن تضع رأسها على صدر أمها ثم تروح تتكلم وتتكلم . . وتروي ما تحس به إلى أمها ـ أصدق صديقاتها على الإطلاق ، ولكن الأم مشغولة إلى درجة لا تسمح لها بإعطاء الوقت الكافي لابنتها .

والعلاقة بين المدرسة والبيت ليست وثيقة بالدرجة الواجبة والتي ينصح التربويون بها ، بل إنها تكاد تكون مقطوعة ، وإننا نرى مدارس تدعو إلى اجتماع لأولياء الأمور فلا يحضره أكثر من خمسة عشر ولي أمر أو مندوب عنه مع أن المدرسة تضم ألف تلميذ أو يزيد ، ونرى مدارس أخرى تكتب

التقارير المختلفة وترسل بها إلى أولياء الأمور فلا تحظىٰ حتى بالإجابة المجردة ، فضلاً عن الحضور والتفاهم حول أسباب كتابة التقرير ومناقشة ظروف التلميذ في المدرسة ، والاشتراك في حل مشكلته إن كانت له مشكلة يعاني منها .

والسؤال الذي يتردد من هؤلاء الآباء، وربما الأمهات أيضاً ، هو ماذا يريدون : « نقود ؟ ملابس ؟ كتب ؟ إلخ . . . » وكأنهم يريدون أن يريحوا ضمائرهم بمجرد البذل المادي ، وهم في ذلك غافلون عن حقيقة هامة وأساسية هي :

(إن المادة المجردة لا تربي أطفالاً) ، ومن أراد ان يكون له أولاد فعليه أن يربيهم في حدود طاقته في المنزل وان يتعاون مع المدرسة أو المعهد الذي يدرسون به .

وعلينا أن نلتفت إلى التوجيه الإلٰهي الكريم عن أصول التربية ، والعناية بالأطفال والناشئة : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا** ﴾[1] .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يلفت نظرنا إلى أهمية إعطاء وقت كاف للناشئة ، والجلوس معهم وتحسن مشاكلهم : (إلزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم) .

والمدرسة أيضاً ، كما سبق لي الحديث في هذا

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٨ .

الموضوع ، أصبحت تشغل الطلاب بمناهج طويلة ومرهقة ، وتحشو أذهان التلاميذ بمواد كثيرة وثقيلة على النفس ، ومملة في كثير من الأحيان ، وحتى على قلوب المدرسين أنفسهم الذين يقذفون بها إلى الطلاب قذفاً ، وكأنهم يصفعونهم بها على وجوههم . وتبقى المشكلة الأساسية : إن المدرس ليس لديه الوقت الكافي ليجلس إلى أبنائه الطلاب ، ويسمع منهم، ويتحاور معهم، فهو منشغل بكثافة المادة التي يريد أن ينتهي منها ، إضافة إلى أن ظروف العملية التعليمية اضطرت الكثير من المدارس للتعاقد مع مدرسين قد لا يكونون مؤهلين تأهيلاً تربوياً كافياً يؤهلهم بدوره للعملية التعليمية ، ولكنهم ممتازون في مادتهم العلمية ، وبهذا يكون أداؤهم ناقصاً ؛ فالعملية التعليمية ذات شقين أساسيين لا بد من اكتمالهما : الجانب العلمي والجانب التربوي ولا يغني أحدهما عن الآخر .

وليس شعري ! هل ندرك جميعاً أن العملية التعليمية لها خصائص أساسية في كل مرحلة من المراحل ؟ فالمرحلة الابتدائية وهي مرحلة تعتبر أساسية في التربية ، وبصورة خاصة في مجال السلوك وعملية محو الأمية لدى الطفل ، والأخذ بيده ليعرف كيف يقرأ وكيف يتعايش مع المجتمع من حوله في وقت تختلف فيه المرحلة الثانوية اختلافاً جوهرياً لأنها مرحلة تثقيف وبلورة للمفاهيم والتعرف على المواهب ، فإذا وصلنا إلى

المرحلة الجامعية بدأنا في مرحلة التخصص . ومن ناحية أخرى تبقى النظرة إلى المدرس الكفء ، على أنه حجر الزاوية الذي يعمل على تنفيذ المنهج عن طريق قدراته الذاتية ، واستيعابه للمادة وقدراته التربوية سواء عن طريق دفع الطلاب إلى القراءة الحرة أو النشاط اللاصيفي أو حتى بالقدوة الحسنة والسلوك العلمي القويم .

فلنتعاون إذن على سد الفجوة بيننا وبينهم ، ولنحاورهم ونستمع إليهم ، ونتحسس رغباتهم ونعطيهم الوقت الكافي في المنزل ، وفي المدرسة لكي يعبروا عن أنفسهم ، ويستشعروا قدراتهم الذاتية وحريتهم في الحديث إلى الأب وإلى الأم ، وإلى المدرس وإلى الموجه دون قمع أو تعنيف أو إهمال .

ولتتسع صدورنا لآرائهم ، ومناقشاتهم ونحرص على أن يكونوا أصحاب قضية يلتفون حولها ، نناقشهم فيها ، ونعلقهم بها ، ثم نتتبع نتاجهم وإبداعاتهم ، وعندها ستخف الوطأة عليهم ويجدون أنفسهم ونجدهم حين نريدهم .

ولا شك إني أنكر التفحيط وأتمنى أن نستطيع عون أبنائنا على التوقف عن هذا العنف ، ولست ممن يناصرونه أو يدعون إليه ، أو يرتاحون إلى هذه الممارسات العنيفة ، ولكنني أحاول أن نتعاون لمعرفة السبب ، حتى نبدأ العلاج ،

ولا نظل مشغولين بالظواهر السطحية وقديماً قيل : (إذا عرف السبب بطل العجب)[1] .

والله من وراء القصد . .

---

(١) المراجع : قضايا الإسلام المعاصر ـ د . عبد الحميد أبو سليمان ، الأستاذ محمد العميل .

د . أحمد العسال : الإطار الفكري للشباب .

د . محمد فريد وجدي : المستقبل للإسلام .

الفهرس

مقدمة ٥

الحرية ونمو الأمة ٧

الشك ٢٣

مؤذن . . في مالطا !! ٢٧

مجانين قومنا ٣٥

الفتنة نائمة ٤٠

سلام لا ضعف فيه ٥١

غزو جديد ٦٤

شياطين الانس والجن ٦٩

الاعلام أو « الحائط المائي » ٨٠

مسؤولية الكلمة ٨٥

تنابلة القرن العشرين (١) ٩٣

تنابلة القرن العشرين (٢) ١٠٥

الحرام ١١١

« القابل » . . و « الفاعل » ؟ ١١٨

هذا بهتان عظيم ١٢٣

ويشرب قومنا . . كدراً وطنياً ١٢٨

احلام العصافير ١٣٢

العبقرية اليهودية ١٣٨
. . رداء الكبرياء ١٤٤
الآن . . يا عمر . . ؟ ! ١٥٣
« الكتابة » و « النقد » بين الهواية والاحتراف ١٦١
قالوا ان هناك مجلس امن . . وهيئة امم ١٦٨
الغزو الخطير ١٧٤
العمل . . بين أهل القمة وأهل القاعدة ١٨١
رجل من القريتين عظيم ٢٠٣
الحياة بعد الموت ٢١١
هو استعراق . . . ولكن ٢١٧
طلع البدر علينا . . . بين الهجرة وذكراها ٢٢٤
لا عزاء للناشرين ٢٣٣
تهاويل ٢٤١
عمَّك جَمَل ٢٤٥
التفحيط ظاهرة صحية ٢٥١

تم فسح هذا الكتاب

من وزارة الاعلام

ادارة المطبوعات بمكة المكرمة

برقم ٧٠٢ ـ تاريخ ١٤٠٦/٢/٦ هـ